الفصل الثالث

الحضارة الفينيقية

منذ القدم وحتّى اليوم لا تزال آراء المؤرّخين مختلفة حول معنى كلمتي كنعان وفينيقيا. ولكنّ البعض يعتقد أنّ معنى هاتين الكلمتين هو ذو مدلولٍ واحد. فالكنعانيّن مجموعات سامية اللغة وأبناء سام سكنوا الصحارى كبقية الدول العربية واليافثيين هم الشعوب (الهندو–أوروبية) يمكن تتبع آثارهم في المنطقة الممتدّة من جبل الكرمل في فلسطين جنوباً إلى اللاذقية في سوريا شمالاً مروراً بكل لبنان، (كما أن حدود كنعان ما قبل سنة ١٢٠٠ ق.م. تبدأ من خليج اسكندرون ساحلاً حتى عريش مصر وشرقاً نحو البحر الميت وتمتد شمالاً حتى تصل بمحاذاة نهر الفرات) وهذه المنطقة عرفت باسم كنعان وربما تعني سكان المنطقة المنخفضة أي السّواحل، وبذلك يكون أصل كلمة كنعان هو فعل "كنع" أي انخفض باللغة السامية، وتعني أيضاً كنع الإنسان في الأرض أي بنى وركع وصلّى. واسم فينيقيا ربما من "فينيكس" حيث أطلقه اليونانيون أو المصريّن أيضاً بمعنى."سكّان المنطقة المنخفضة" كما يعني اللون الأحمر القاتم أي "الأرجواني" لاشتهار مدن فينيقيا بصناعة الأرجوان، وهو الصباغ الأحمر الضارب إلى البنفسجي المستخرج من نبات الأرجوان المعروف باسم زمريق، ومن أصداف المورکس أو التّمر والنّخيل كما تدل أيضاً إلى طائر الفينيق الذي هو دائما بتجدد انبعثت أسطورته من هذه الأرض.

* كنعانيون :

ينقسم الكنعانيّون حسب التصنيف اللغوي إلى عدّة فروع أشهرها :-

- الفينيقيّون: سكنوا على سواحل البحر الأبيض المتوسّط الشّرقي (الشّاطئ السوري واللبناني).
- الأموريون: سكنوا في سوريا الدّاخليّة كما امتدوا إلى جبال لبنان وجبال فلسطين.
- المؤابيون: سكنوا شرقي البحر الميت.
- العبرانيون: سكنوا جنوبي ووسط فلسطين.
- العمونيون: سكنوا شرقي نهر الأردن.

* الفينيقيون :

(بنو قين في المرويات العربية القديمة، ويقال أنها حرفت إلى فينيسيان عند نطقها من قبل الرومان) أو الكنعانيون (بالإغريقية: Φοίνικες فوينيكِس) هم أحد الشعوب السامية القديمة التي سكنت لبنان وسوريا وفلسطين وأنشأت ممالك صغيرة عكا وجبيل وصيدا وصور وفي الفترة مابين (١٠٠٠ : ٧٠٠) ق.م أنشأوا مستعمرة لهم في قرطاج وكانوا قوة مهيمنة في العالم القديم حتى ١٤٦ق.م إثر سقوطها عقب حروب بونية ثالثة. وقد أختلف في أصولهم فقيل هم نازحين من الجزيرة العربية وكتبة اليهود إعتبروهم من نسل كنعان من حام على طريقتهم في تقسيم الأمم بينما الأبحاث والحفريات تظهر أن أصولهم تعود إلى سيناء الموطن الأول للأبجدية الكنعانية.

نشرت عدد من الدراسات البيولوحية؛ إحداها نشرتها مجلة ناشونال

جيوجرافيك: أن واحداً من كل ثلاثة لبنانيين (سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين) هم من أصول فينيقية.

* أصل الفينيقيين :

رغم تعدد البعثات الأثرية التي عملت في جميع المواقع الفينيقية القديمة، فإن الكشف في هذه المواقع لم يتعد الطبقات الأرضية التي ترجع إلى العصور البيزنطية والرومانية وفي بعض المواقع إلى الفينيقيين وقد ذكرت العديد من المصادر التاريخية البابلية والآشورية والفرعونية واليونانية. والمتفق عليه أن نشأة المدن الفينيقية ترجع إلى أربعة آلاف سنة قبل الميلاد. وقد اختلف المؤرخون في أصول نشأتهم. منهم من قال أنهم أتوا من شواطئ البحر الأحمر ومنهم من أرجعهم إلى شعب دلمون في الخليج العربي. إلا أنهم اتفقوا على أن الفينيقيين هم كنعانيون ساميون من صلب سام بن نوح. وربطهم الطبري بالعماليق من العرب البائدة.

♦ النسب إلى شرقي الجزيرة العربية :

أما سترابون (٦٤ق.م : ١٩م)، الجغرافي الروماني، أشار إلى أن المقابر الموجودة في جزر البحرين تشابه مقابر الفنيقيين، وأن سكان هذه الجزر يذكرون أن أسماء جزائرهم ومدنهم هي أسماء فينقيّة. وقال أيضاً إن في هذه المدن هياكل تشبه الهياكل الفينيقية. ومن الأدلة التي تدعم هذه النظرية، أسماء في شرق الجزيرة العربية تحمل نفس أسماء المدن التي أنشأها الفينيقيون على الساحل اللبناني. مثل صور على ساحل عُمان، وجُبَيْل، وجزيرة أرواد (أرواد وهي الاسم القديم لجزيرة المحرّق في البحرين)، وجزيرة تاروت بالقطيف التي تقارب اسم مدينة بيروت بلبنان. وقد عثر بتاروت والقطيف على آثار فينيقية كثيرة.

كما يذكر أن الفنيقيين انطلقوا من مكران إلى الساحل الشامي حيث بنوا مدنهم وأنشأوا حضارتهم التي نشروها في البحر الأبيض المتوسط. وأما فرنسيس لزمان مؤلف "تاريخ الشرق القديم" فيرى أنهم "سلكوا طريق القوافل من القطيف إلى وادي غطفان وجبل طويق في نجد. ثم مروا بالوشم والقصيم فالحناكية. ومنها ساروا في الطريق التي يسلكها الحجاج في كل سنة".

وبالنظر إلى ما أجمع عليه المؤرخون والآثاريون نجد أن الفنيقيين مثل العرب ساميون. بل أنهم عرب الأصل. نزحوا من الشواطئ العربية الشرقية على الخليج العربي، من القطيف ومن البحرين إلى سواحل البحر المتوسط في قديم الزمان. وقد جاء في الجزء الثاني من "لغة العرب":"..والظاهر أنهم (أي الكنعانيين – الفينيقيين) من أصل عربي فقد نقلت التقاليد القديمة أنهم ظعنوا من الديار المجاورة للخليج العربي إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط". وقال هنري راولينسون أن أصل الفنيقيين (الكنعانيين) من سكان البحرين والقطيف في الخليج العربي. ظعنوا من هناك إلى سواحل الشام منذ نحو خمسة آلاف سنة. وأنهم عرب بأصولهم وأن هناك مدناً فنيقية أسماؤها فنيقية مثل صور وجبيل وارواد.

♦النسب إلى العرب البائدة :

وقد ذكر المؤرخ العربي "أبو جرير الطبري" (المتوفى عام ٣١٠هـ/٩٢٢م) أن: "الكنعانيين هي من العرب البائدة، وأنهم يرجعون بأنسابهم إلى العمالقة". وقال "ابن خلدون" عن الكنعانيين آخذا عن الطبري: "...وأما الكنعانيون هم من العمالقة، كانوا قد انتشروا ببلاد الشام وملكوها". وقال أيضاً: "أول ملك كان للعرب في الشام فيما علمناه للعمالقة". وقال أيضاً: "وكانت طَسْم والعماليق وأُميم وجاسم يتكلمون بالعربية".

* تحليل جينوغرافي :

قام الدكتور "بيار زلّوعة" (المختص في دراسة الحمض النووي والمدرّس في الجامعة اللبنانية الأميركية) بإجراء دراسة حديثة ضمن المشروع الجينوغرافي التابع لمؤسسة ناشيونال جيوغرافيك الذي يهدف إلى دراسة حركة هجرة الشعوب تاريخياً. وقد تمكّن خلال سنوات الدراسة من استنتاج البصمة الفينيقية الموجودة في الحمض النووي المستخلص من بعض الآثار الفينيقية، وفي جينات الصبغي (Y) عند نسبة معتبرة من الذكور الذين يعيشون حالياً في مناطق التواجد القديمة للحضارة الفينيقية في محيط البحر الأبيض المتوسط. هذه البصمة الفينيقية (الهابلوغروب J2) وصل حاملوها إلى الساحل الشرقي للبحر المتوسط قبل نحو ١٠ آلاف سنة، أي مع بداية عصر التحضر (الانتقال من حالة الترحال إلى حالة الإقامة). وسكنوا هذه الأرض وأنشأوا قراهم ثم مدنهم، وهاجر بعضهم إلى أماكن أخرى من حوض المتوسط حيث بنى مستوطنات وخلّف هناك آثاره وجيناته. فالجين (J2)موجود في كلّ المدن التي استخدمها الفينيقيون في حوض المتوسط – من قرطاج إلى صقليّة ومالطة وغيرها– والتي يعود تاريخ وجودهم فيها إلى ٢٠٠٠ ق.م. وعلى الرغم من دراسات سابقة أجراها باحثون آخرون تدل على أن هذا الهابلوغروب (J2) ليس فقط للفينيقيين فهو أقدم عمراً من تاريخهم وموجود بكثرة في جميع منطقة الهلال الخصيب، بل وبصورة أكبر بكثير في القوقاز، إلا أن دراسة بيار زلوعة تعدت الهابلوغروب (J2) لتحدد إضافياً وعلى وجه الخصوص ستة نسخ متنوعة من نيوكليوتيدات قصيرة متكررة جنباً إلى جنب، تعرف بالنمط الفرداني (Y–STR)، تحمل بصمة فينيقية منفردة في الخصوصية. وبالتالي تمثل الأنماط الفردانية الستة المكتشفة –(PCS1+ وصولاً إلى

PCS6+)- الأنساب التي من المرجح أنها نشرت عبر الفينيقيين أثناء استعمارهم لسواحل حوض البحر المتوسط، ويدعم هذا الترجيح ارتفاع ترددات هذه الأنماط الفردانية في كل من مستعمراتهم وفي قلب وطنهم الأم فينيقيا، على حدٍ سواء.

* مدن فينيقيّة :

ترجع نشأة المدن الفينيقية إلى ألوف السنين على الساحل المعروف في يومنا الحالي بالساحل اللبناني ودامت هذه المدن ما يقارب من خمسة وعشرين قرناً. بلغت فينيقيا والمدن التابعة لها ذروة مجدها في القرن الثالث عشر قبل الميلاد إذ كانت اتصالاتها البحرية تشمل مناطق العالم القديم بأكمله وبلغت تجارتها درجة عظيمة. حيث أقامت المدن (الكنعانيّة – الفينيقيّة) علاقات تجاريّة وثقافيّة مع مصر وبلاد الرافدين، وهذه العلاقات كانت تقوم على أساس المودّة. وبين تابعٍ ومتبوع، فكانت هذه المدن تؤمّن للبلاد المقيمة معها علاقات أخشاب الأرز التي تستخدم في البناء وصناعة السّفن.

هناك عدّة مدن أخرى بنوها في لبنان وسوريا وفلسطين، كما لكلّ مدينة مرفآن شمالاً وجنوباً وذلك لتسهيل الاتصالات بين المدن. بالنسبة للمدن الواقعة على الساحل السوري الممتد من أقصى شمال سوريا حتى جنوب فلسطين مثل صور، صيدون (صيدا)، بيروت، جبيل، أوغاريت، الإسكندرون، عكا... كما أنها ضمت مدينة قرطاج . أما عاصمة فينيقيا فهي "جبيل" أو "بيبلوس". ومدينة "جبيل" موجودة إلى يومنا هذا في لبنان.

تقع المدن الفينيقيّة على الشّاطئ الشّرقي للبحر المتوسّط وأهمّها :

– **جبيل** : قديماً جبال وبيبلوس وذلك في العهدين اليوناني والرّوماني، من أهم المدن الفينيقية وأقدم مدينة مأهولة في العالم ومصدر الأبجدية الفينيقية.

– **صور** : التي تعتبر من أقدم المدن الفينيقيّة، حيث يعود تأسيسها إلى الألف الثّالث قبل الميلاد، وقد غدت منذ أواخر الألف الثّاني قبل الميلاد من أكثر المدن الفينيقيّة صيتاً وشهرة.

– **بيروت** : (بيريت)– الدّامور– صيدا التي كانت أكبر المدن الفينيقيّة.

– **أوغاريت** : (رأس شمرا حالياً) تقع شمال مدينة اللاذقية وتعتبر من أهمّ المدن الفينيقيّة نظراً لموقعها الجغرافي.

– **أرواد** : وهي الجزيرة الوحيدة المأهولة على الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط في سوريا.

– **طرابلس** : (تريبولي). وقد عرفت بهذا الاسم اليوناني الأصل لأنّها كانت تتألّف من ٣ مدن صغيرة أو ٣ أحياء خاصّة بالصّوريّين والأروادّيين والصّيدونيين.

– **طرطوس** : من المدن الفنيقية الهامة ولها ميناءها الفينيقي المعروف قديماً.

– **صيدا** : أو صيدون وتعتبر من المدن المهمة أيضاً.

– **جبلة ميناء** : مملكة سيانو.

• **صيدا** : اتخذها الفينيقيون عاصمة لهم. انطلقوا منها ليؤسسوا محطات تجارية في دول عديدة. وقد أثبت علماء التاريخ أن الفينيقيين وصلوا إلى أمريكا الشمالية والجنوبية كما أنهم سبقوا كريستوفر كولومبس في اكتشاف القارة الأمريكية الشمالية بقرون عديدة. عرفت مدينة صيدا بتجارتها التي سيطرت على المنطقة خلال القرن الثاني عشر والثالث عشر.

• **جبيل بيبلوس** : اشتهرت جبيل بمكانتها الدينية والتجارية كما أنها عرفت

بموطن ولادة الأبجدية الرومانية المأخوذة عن الكتابة الفينيقية.

♦من الآثار الفينيقية الموجودة في مدينة جبيل : بقايا البوابات والأسوار المحصنة للمدينة، وعدة هياكل ومقابر ملوك جبيل التي تقع تحت الأرض .

• **صور** : انطلق منها الفينيقيون بقيادة الملكة أليسار وهي ابنة الملك ميتينوس، ليؤسسوا مدينة قرطاج في شمال أفريقيا. أحرزت صور تقدماً في مجال التجارة مما جعلها تتفوق على صيدا. وقد عرف البحر المتوسط لفترة من الزمان ببحر صور.

♦أما الآثار الموجودة في مدينة صور تعد قليلة، ومنها: حاجز الماء وحائل الأمواج الذي يعد معزولاً عن ساحل المدينة، ومقبرة آحيرام الأول (الملك الذي حكم صور) التي تبعد بضعة كيلومترات عن المدينة.

• **بعلبك** : أنشأها الفينيقيون في أوائل العام ٢٠٠٠ ق.م فبنوا فيها أول هيكل الذي أهدى لإله الشمس، بعل. ومن هنا حصلت المدينة على اسمها. لكن الهيكل لا يمكن رؤيته الآن بسبب الأعمدة الرومانية التي بنيت فيما بعد في بعلبك. وقد كانت بعلبك على عكس المدن لأخرى، معزولة عن التجارة .

• **قرطاج** : أسستها الملكة أليسار . عرفت قرطاج بعاصمة المجد وملكة البحار بسبب ما احتلته من مكانة عالية من الرقي والتمدن والازدهار: امتازت هذه المدينة بالحيوية والبراعة والإبداع. استطاعت أن تسيطر على المستعمرات المغربية كما أنها لعبت دوراً حضارياً في شمال أفريقيا وجزر البحر المتوسط وبريطانيا.

* الحضارة الفينيقيّة :

عرفت الحضارة الفينيقية عصرها الذهبي منذ سنة ٥٠٠ إلى سنة ١٠٠ قبل الميلاد فقد استمر ازدهار صور ونفوذها زمناً طويلاً في حوض البحر الأبيض

المتوسط الشرقي، حتى ما بعد سنة ٥٠٠ ق.م يحميها أسطولها الكبير الفريد من نوعه آنذاك. وترجع أول إشارة إلى الفينيقين في النصوص القديمة في الكتابات المصرية الفرعونية التي تطلق على الفينيقيين في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد اسم الأسرى الشرقيين والحطابين نظراً لاكتساء مناطقهم ولا سيما الجبال بشجر الأرز الذي كانوا يحتطبون منه ويستخدمونه في التجارة مع مصر وغيرها. وقد بني هيكل سليمان في أورشليم من شجر أرز لبنان أو (أرز الرب) كما يسمى في التوراة والذي لا يتواجد إلا في لبنان. وقد كان للفينيقيين أبجدية خاصة بهم وكتابة كانت الأكثر تطوراً في عصرها حيث تأثرت بها المناطق المجاورة.

* مصادر الحضارة الفينيقيّة :

إنّ معظم معلوماتنا في التاريخ الفينيقي هي :

أولاً المصادر الخارجيّة :

١- الكتابات المصريّة والبابليّة والآشورية : لاسيّما الرّسائل التي تبادلها فراعنة مصر وأمراء سوريا والمدن الكنعانيّة.

٢- المصادر اليونانيّة : قصائد الشّاعر هوميروس في الملحمتين الإلياذة والادوسية، وكتابات المؤرّخين اليونانيّين أمثال هيرودت.

٣- المصادر الرّومانيّة : "يوستينوس".

٤- كتاب التناخ : الذي ورد فيه اسم كنعان بكثير من السلبية وأسماء مدن فينيقيّة هامّة.

ثانياً المصادر الداخلية :

- الكتابات الفينيقيّة : الّتي نقشت على النّواويس والأنصاب والاكتشافات الأثريّة

الحديثة لمدينتي أوغاريت وجبيل، كذلك الحفريّات في صور وصيدا والبقاع.

* التّنظيم السّياسي :

لم يمل الفينيقيّون إلى إقامة دولة قويّة على غرار البابليّين والآشوريّين والمصريّين إنّما كانوا مقسّمين إلى عدّة (دويلات – مدن)، وكان التّنافس سائداً بينها، وتعود أسباب عدم إيجاد الوحدة السّياسيّة بينها إلى ما يلي: التّنافس التّجاري فيما بينهم وصعوبة المواصلات (جبال – غابات – أودية – مسالك وعرة). وبالرّغم من عدم توصّل المدن الفينيقيّة إلى إيجاد الوحدة السّياسيّة، فقد كان التّحالف أحياناً يتمّ بين بعضها تحت زعامة إحدى المدن الكبرى بدافع الخوف من أخطار خارجيّة كانت تهدّدها.

* نظام الحكم :

كان نظام الحكم عند الفينيقيّين ديمقراطياً فكان لكلّ مدينة حكومة خاصّة بها يترأسها حاكم أو ملك يحكمها بالوراثة، سلطته مقيّدة، يساعده في إدارة الحكم مجلسان هما: مجلس تمثيلي "هيئة من المشرّعين" مجلس الأشراف "الأغنياء" إضافة إلى ذلك الكهنة الذين كان لهم دورٌ كبير في إدارة دفّة الحكم. وقد شكّلت مدن صور وجبيل وأرواد اتّحادا اقتصادياً مركزه طرابلس التي كانت تعقد فيها المؤتمرات العامّة للتّداول في الشّؤون الاقتصادية والمشاكل المشتركة والعمل على ضبط الاستقرار الدّاخلي كي تؤمن مصالح كلٌّ منها، وقلّما كانوا يناقشون الأمور السّياسيّة.

تألفت فينيقيا من عدة ممالك؛ وضمت كل مملكة مدينة اعتبرت عاصمة لها. عرف نظام الحكم في فينيقيا بالملكي الوراثي حيث كان يمثل الملك الآلهة

وله السلطة المطلقة في إدارة شئون المملكة التي يحكمها. أما كبار المدينة ورجال الدين والقضاة لعبوا دور مساعدو الملك في إدارة المملكة. أما الجيش فقد تكفل حماية المملكة وتأمين القوافل التجارية.

* الدّيانة :

كان للفينيقيين دين واحد استمر طيلة وجودهم لم تطرأ عليه أي تغيرات بارزة إلا خلال النصف الثاني من القرن الأول بعد الميلاد. وهذه الديانة تتلخص بتمجيد العناصر والظواهر الطبيعية متجسدة في آلهة متعددة منظمة داخل مجلس الآلهة لكل منها رتبته ووظائفه وفق نظام ميثولوجي معقد. فقد اعتمد الدين الفينيقي السامي الأصل على الاعتقاد بظاهرة الخصوبة والإنتاج حيث آمن الفينيقيون ببعض قوى الطبيعة التي أحاطت بهم وقامت ديانتهم على عبادتها؛ كالشّمس والقمر والأرض والسّماء والبحر والمطر والبرق والرّعد والعواصف، وجعل الفينيقيّون لكلٍّ من الحرب والزّراعة والملاحة والصّيد إلهاً ودعي بالبعل، إضافة إلى أنّهم ألّهوا ملوكهم وأبطالهم، واعتقدوا بالتّثليث الإلهي (أب وأم وابن). إيل عناة بعل (عشتروت وادونيس) وفي مرحلة متقدمة كان الإله ايل في كل شيء حتى أصبح الفينقيين يعتبرون أول شعب آمن بالإله التوحيدي إيل، كما أنهم عبدوا الكثير من الآلهة. وكان لكل مدينة إله يعبد. وسمى الفينيقيون بعض آلهتهم نسبة إلى المدن التي أقاموا فيها.

♦أشهر آلهتهم :

إله القوى الكامنة (الإله إيل) سيّد الآلهة- بعل وهو رب الخصب والنماء "الرّب" حيث كان لكلّ مدينةٍ بعلها وبعلتها مثال 'بعلبك' (بعل – بك)، 'بعلشميه' (بعل–شميه)، بعل بيروت. وأدونيس إله الشّمس والحياة مركز عبادته الرئيسي في

جبيل، وعشيقته عشتار إلهة الحبّ والخصب والجمال وكانت عبادتهما منتشرة في جميع المدن الفينيقيّة. وأشمون إله الصحّة (صيدا) وملكارت (صور) ملك المدينة. ورشف إله البرق والرّعد والنّور، وداغون إله الزّرع والنّبات وموت إله الموت.

ومن الآلهة التي عبدها الفينيقيون وقدسوها، إله المطر (الإله بعل)، الإله (أشمون)، الإله (إيسيس). أما في قرطاج، فقد عبدوا آلهة الخصوبة والإنتاج (تانيت)، والإله (بعل آمون) بالإضافة إلى الآلهة التي عبدت في بلاد الشام. وقد استمرت عبادتهم حتى العهد الروماني. وكان أكبر الآلهة رتبة هو ايل وهي أنثى تلقب أيضاً بـ 'أشيرة البحر'، أما بعل الآلهة الثاني بعد ايل. حيث وجد بعض التماثيل المجسدة لكلاهما في الفن الفينيقي المزدهر. حيث كان الفن الفينيقي يتميز بالانتقائية كونه متأثراً بالحضارات المجاورة. ولم يتخذ له أسلوباً مستقلاً إلا في الألف الأول قبل الميلاد؛ فقد بدأ يتكّون له طابعه الخاص والمميز وخصوصاً تأثره باللون الأحمر بالذات وتدرجاته؛ لأن معظم الفنيقيين كانوا من الحرفيين والمحبين للفن، ولكّون الفينيقي مسالم غير محب للحرب إلا للدفاع عن النفس فقد كان يستخدم فنونه وتجارته لشراء السلام مع الدول المجاورة.

* المعتقدات الدينية عند الفينيقيين :

اعتقد الفينيقيون بالحياة الثانية فبنوا مقابرهم التي وضعوا فيها الميت بالإضافة إلى أدوات خاصة به للاعتقاد بأنها ستلزمه عند قيامه في الحياة الثانية. وقد امتازت هذه الأدوات بالبساطة فضمت بعض الأدوات المنزلية التي كان يستعملها الفينيقيون كالأواني الفخارية والمصابيح الزيتية. إلى جانب المقابر شيّد الفينيقيون معابد امتازت بالتأثر بالطابع اليوناني وقد اهتم بها الكهنة المتفرغون الذين عرفوا بتوارث الكهانة في عائلتهم.

كانت ديانة الفينيقيين مجموعة من الطقوس والعبادات تقيمها المدن الفينيقية، وتختلف باختلاف الأمكنة التي تقام فيها، بالرغم من اشتراكها جميعاً في النظرة ذاتها للإله وللظواهر الكونيّة والطبيعيّة.

* الهياكل :

أقام الفينيقيّون المعابد تمجيداً لآلهتهم، وكان أشهرها معبدي أدونيس وعشتار في مغارة أفقا منبع نهر إبراهيم في جبيل وكان الهيكل يتألّف من ٣ أقسام هي:

- القسم الدّاخلي موضع الإله وعبادته .
- القسم الخارجي وهو المعبر إلى الدّاخل .
- السّاحة العامّة؛ وكانت مساكن الكهنة والموظّفين إلى جانبها .

* تقديم الأضاحي :

كان الفينيقيّون يقدّمون إلى الآلهة الضّحايا البشريّة في الأوقات العصيبة، وكان تستبدل بالحيوانات في بعض الأحيان، التي كانت دماؤها تصبّ على الأنصاب ولحومها تحرق على المذابح، اعتقاداً منهم أنّ دخانها يشبع الآلهة ويرضيها، وكانت الصّلوات والدّعوات والرّقص والتّرانيم تقام على يد الكهنة.

* مواسم الاحتفالات :

كان لدى الفينيقيّين موسمان رئيسان هما :

- **موسم الفرح والبهجة والسّرور** : الذي كان يقام في فصل الرّبيع رمزاً لولادة الإله أدونيس من جديد.

– **موسم الحزن** : والكآبة الذي يقام في الخريف رمزاً لموت الإله، ويعود ذلك إلى قصّة أدونيس الذي صرعه حيوانٌ بريٌّ متوحّش في غابات وادي نهر إبراهيم الذي أصبح مقدّساً لدى الفينيقيّين، وأخذت تتوسّل للإله موت (ملك العالم السّفلي) لإحيائه من جديد، فكان لها ما أرادت.

– **ما بعد الموت** : لم يعتقد الفينيقيّون بالحياة الثّانية، إنّما كانوا يعتقدون أنّ الرّوح لا تفنى بعد الممات، إنّما تستقرّ في حالة سكونٍ وهدوء، قريبةً من الجسد (أي من صاحبها). كان الفينيقيّون يدفنون ملوكهم والنّبلاء في نواويس حجريّة، بينما كانوا يدفنون العامّة في توابيت خشبيّة، وقد وضعت هذه النّواويس والتّوابيت في أماكن آمنة لا تنالها أيدي اللصوص، حيث كان يوضع مع الميّت ما يحتاج إليه من مؤن وأواني خزفيّة وحلى. وكان اسم الميّت ينقش على قبره، وكان ذوو الفقيد وأقاربه يزورونه من حينٍ إلى آخر، ويضعون على قبره الورود والطّعام والشّراب ظنًّا منهم بأنّ روحه تسرّ بذلك.

* إنجازات الفينيقيين :

١– اختراع الأبجدية :

تعد اختراع الأبجدية من أعظم ما قدمته الحضارة الفينيقية للبشرية. ابتكرت هذه الكتابة عام ١١٠٠ ق.م و قد تألفت من ٢٢ حرفاً يمثل كل واحد منها صوت معين. سميت أيضاً بأبجدية جبيل. استعان الفينيقيون بالكتابة السومرية والمصرية القديمة ثم طوروها مع مرور الزمن. في البداية كانت تكتب هذه الحروف على ألواح من الطين أو الفخار ثم فيما بعد كتبت على أوراق البردى المصرية. أكسب اختراع الأبجدية فينيقيا مكاناً هاماً في تاريخ الحضارة.

٢- اكتشاف الصباغ الأرجواني :

كان الفينيقيون أول من اكتشف اللون الأرجواني فاستخرجوه من أصداف المريق وهي نوع من المحار وجد بالقرب من الشواطئ الفينيقية. أدخل الفينيقيون الصباغ الأرجواني على أقمشتهم فاشتهروا بصناعة الأقمشة الأرجوانية اللون .

٣- صناعة السفن :

كانت السفن الفينيقية عبارة عن مراكب شراعية تتألف من سارية واحدة، شراع مربع، ومجاديف يدوية. اعتمد عليها الفينيقيون في تجارتهم وأسفارهم وتبادل صناعاتهم مع الدول الأخرى المجاورة لها والبعيدة عنها.

* علوم الفينيقيّين وفنونهم وآدابهم :

* طرق الكتابة قبل اكتشاف الأبجديّة الفينيقيّة: قبل اكتشاف الأبجديّة الفينيقيّة في القرن الرّابع عشر قبل الميلاد، كان العالم القديم يعتمد في الكتابة طرقاً مختلفة ، فقد ظهرت الكتابة لأوّل مرّة في كلٍّ من مصر وبلاد ما بين النّهرين في أوائل الألف الثّالث قبل الميلاد. وجاءت هذه الكتابات تصويريّة "هيروغليفيّة" في مصر و"مسماريّة" في بلاد ما بين النّهرين، ثمّ تطوّرت كلٌّ من الكتابتين إلى مقاطع صوتيّة ثمّ إلى الصّوت حيث وضع له شكلٌ أو حرفٌ حتّى بلغ عدد هذه الأحرف الأبجديّة ٢٤ حرفاً في أوائل الألف الثّاني قبل الميلاد .

* اكتشاف الأبجديّة الفينيقيّة :

يجتمع معظم علماء اللغات والآثار على أن اختراع الأبجدية الأم التي ولدت منها جميع لغات وأبجديات العالم مثل: (اليونانية والعربية والعبرية والصينية ... إلخ)، تم على أيدي الفينيقيين حيث وجد أقدم رقم (لوح فخاري) مكتوب

عليه الأبجدية في أوغاريت قرب مدينة اللاذقية في سوريا. المؤرخ هيرودوتس اليوناني نسب الاختراع إلى "قدموس" الفينيقي الصوري. ولما انتقل قدموس إلى طيبة نشرها بين شعوب أوروبا. وبذلك ساهم في نشرها في جميع بلاد العالم شرقاً وغرباً؛ وهناك آثار في مدينة طيبة عبارة عن نقش لصورة قدموس يعلم ابناءه الحروف الأبجدية. ومن أقدم الكتابات التي كتبت بالأبجدية الفينيقية منقوشات 'قبر أحيرام' ملك جبيل أو "بيبلوس". يذكر أنه وجد آثار لنصوص فينيقية في دول أخرى مثل مصر وقبرص وإسبانيا وإيطاليا وخاصة تونس وفي أكثرية حوض البحر المتوسط حتى أن آثار الفينيقيون وصلت إلى القارة الأمريكية، كما ذكر الباحث "ستيف بارثالوميو" عن أثار فينيقة تعود لقرطاجة في وسط ولاية يوتاه في الولايات المتحدة الأميركية. وكانت تكتب حروف اللغة الفينيقية من اليمين إلى اليسار (مثل العربية). وتعتبر الأبجديّة الفينيقيّة أهمّ المنجزات الحضاريّة وأعظم ما قدّمه الفينيقيّون من خدمات إلى العالم. وأشهر الأبجديات أبجدية أوغاريت وهي أكمل الأبجديات. فقد عرف الفينيقيّون بتلك الكتابة المقطعيّة الصّوتيّة. وكان لابدّ للفينيقيّن من تطويرها ومن استنباط كتابة جديدة تتّفق ومتطلّباتهم الحياتيّة والاجتماعيّة وخالية من التّعقيد والالتباس، وأكثر فهماً ووضوحاً للجميع، وقد وضعوا لها القواعد إلى أن أخرجوها كتابة أبجديّة، مؤلّفة من اثنتين وعشرين حرفاً فاستعملوها ونشروها في العالم.

كانت قد ظهرت عدّة كتابات فينيقيّة أشهرها "أبجديّة أوغاريت" التي كتبت بأشكال مسماريّة في القرن الرّابع عشر قبل الميلاد –كما ذكرنا سلفاً– واشتهرت مع المدينة الّتي وصلت بشهرتها مناطق واسعة من شرق المتوسط ودمّرت على يد الغزاة الآنيين الذين أتوا من اليونان، وقد شكلت أبجدية أوغاريت أحد أهم وأكمل

الابجديات على الإطلاق. وأيضاً "الأبجديّة السّينائيّة" (كشفت نصوصها في سيناء) التي تمثّل إحدى المحاولات التي قام بها الكنعانيّون للانتقال من الكتابة التّصويريّة – المقطعيّة إلى الأبجديّة، و" أبجديّة جبيل " التي تتألّف من ٢٢ حرفاً كانت تكتب بالقلم والحبر على ورق البردي، من اليمين إلى اليسار، وكان الأصل الذي اشتقّت منه جميع الأبجديّات السّاميّة الأخرى و"الأبجديّة اليونانيّة " ومنها اشتقّت الأبجديّات الحديثة.

* علـوم :

كان للأبجديّة والاكتشافات الفينيقيّة، والرّحلات الجغرافيّة، والصّناعات والمستعمرات التي أنشأها الفينيقيّون في مختلف أنحاء البحر الأبيض المتوسّط الأثر إلهام في تاريخ الشّعوب القديمة عامّةً، فقد اشتهر الفينيقيّون خاصّة "الصّوريّون" و"الأوغاريتيون" بالعلوم لا سيّما في علم الفلك والحساب الضّروريّين في الملاحة والتّجارة، وكان القرطاجيّون أوّل من أصدر أوراق النّقد على جلود الحيوانات واستنبطوا خطوط الطّول ودوائر العرض ووضعوها على خرائطهم لتحديد مواقع مستعمراتهم ومحطّاتهم التّجاريّة. واكتشفوا النّجم القطبي الشّمالي لتحديد الجهات. كما ساهموا في تطوّر علم الجغرافيا نتيجة رحلاتهم الاستكشافية حول أفريقيا، وعبورهم مضيق جبل طارق، والبحار والمحيطات والتي أكسبتهم معرفة بأحوال القارّة الأفريقيّة من حيث المناخ، والنّبات والسّكّان وأنماط معيشتهم وعاداتهم وتقاليدهم. وحسب المؤرخون أنّ الفينيقيّين وصلوا بسفنهم إلى السّواحل البريطانيّة، وربّما إلى القارّة الأمريكيّة قبل أن يكتشفها كريستوفر كولومبوس 'لوحة باراإبا' تثبت ذلك والتي وجدت في البرازيل (نقش بارايبا **Paraíba** أو **Parahyba**) .

* فنــون :

جاء الفنّ الفينيقي في الألف الثّالث قبل الميلاد مقلّداً لعدّة فنون خارجيّة، كالقبرصيّة والمسينيّة والإيجيّة والمصريّة والرّافديّة، إلى أن أصبح في الألف الأوّل قبل الميلاد محرّراً من الاقتباس والتّقليد، متّخذاً طابعاً خاصّاً به، فقد تجلّى فنّ الإتقان والخلق والإبداع عند الفينيقيّين في: الصّباغ الأرجواني الذي استخرج من الصّدف واستخدم في صناعة الأقمشة المطرّزة الّتي نالت شهرة عظيمة في العالم القديم. والخزف الذي تفنّنوا في صناعته، حيث شملت الكؤوس التي جاءت بشكل تماثيل راقصات، وقوارير الطّيب بشكل تماثيل صغيرة والأبارق والزّهريّات التي زيّنت بالألوان والنّقوش الجميلة، وصناعة النّقود والأختام التي بدت فيهما الدّقّة والإتقان، وأدوات الزّينة التي شملت الحلى المطعّمة بالعاج والذّهب والفضّة والحجارة الكريمة والرّسم والنّقش على الخزف والخشب والمعادن، والنّحت الذي تمثّل في تيجان الأعمدة والمسلات واللوحات الجميلة التي جاءت آية من الدّقّة والجمال. أمّا في البناء فقد تجلّت براعتهم في هندسة القصور والهياكل والسّفن التّجاريّة والحربيّة فضلاً عن اهتمام الفينيقيّين بالغناء والموسيقى وتطويرها في الطّقوس الدّينيّة، وكان العود إحدى آلاتهم الموسيقيّة التي استعملها شعوبٌ كثيرة.

يُعدّ الفن الفينيقي أحد فنون الشرق القديم. وتدل آثاره المكتشفة في أغاريت وأرواد وطرطوس وعمريت وسيميرا وجبيل وصيدا وصور وبعلبك، وتلك المحفوظة في عدد كبير من المتاحف المحلية والعالمية، على ذوق الفنان الفينيقي، وحسه الجمالي ومهارته اليدوية وخبرته المهنية وآفاقه الثقافية.

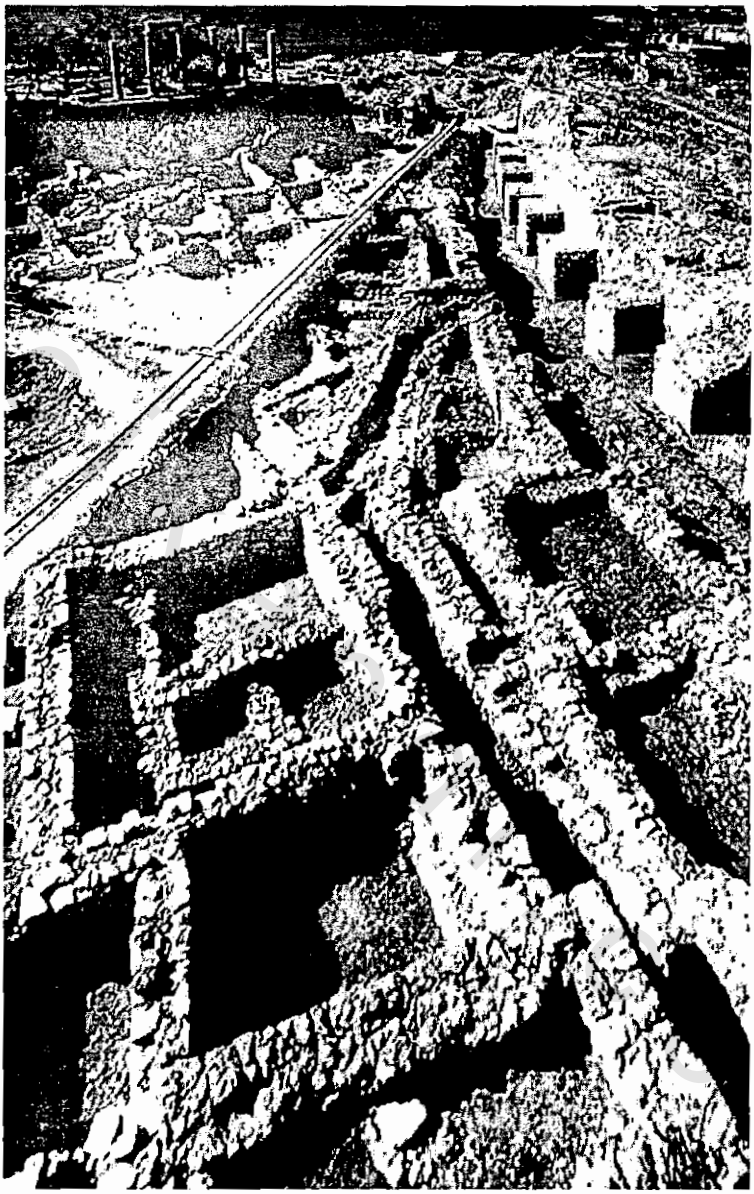

تنقيبات المدينة القديمة في بيبلوس (إلي اليمين أطلال السور المحصن)

فثمة مدن عديدة أسسها الفينيقيون في أقطار حوض البحر المتوسط، تميزت بأهمية موقعها وحسن تنظيمها العمراني. وقد لفت نظر المنقبين في أغاريت

استقامة الشوارع وتقاطعها مع بعضها بزوايا قائمة، أضف إلى ذلك الهواجس الدفاعية كبناء الأسوار وغيرها.

وتميّز الفينيقيون بالميل إلى فن العمارة الدينية والمدنية والجنائزية. ويعد «قصر أغاريت» من أجمل منجزات العمارة المدنية الفينيقية، إضافة إلى روائع العمارة الدينية الفينيقية كـ «معبد بعل» و«معبد دجن» في أغاريت، و«معبد حصن سليمان» في محافظة طرطوس و«معبد جوبيتير» و«معبد باخوس» في بعلبك.

وتدل المنحوتات الفينيقية على أن فن النحت كان ذا وظيفة روحية وثقافية تهدف إلى تجسيد مفاهيم الأرباب الفينيقيين مثل: «إيل» سيد الأرباب، ويبدو جالساً على عرشه يبارك بيده اليمنى، و«علياں بعل» الذي يجسد فكرة الخصب، و«عشتار» ربة الحب والحرب تبدو منتصبة فوق الأسد، و«أدونيس» يجسد فكرة الموت والعودة إلى الحياة وتجددها، وكان لهذه الأسطورة الفينيقية أثرها الكبير في الأدب العالمي كشعر ميلتون وغيره، وما ترمز إليه أزهار شقائق النعمان. و«عنات» أخت بعل الحريصة عليه تبدو واقفة تبارك بيدها اليمنى، و«ملقارت» الرب الفينيقي، وغيره من الأرباب الذين أوحوا إلى الفنانين بقصصهم الأسطورية فخلّدوها بروائعهم الفنية المختلفة.

وهناك التوابيت الحجرية الضخمة مثل: «تابوت ملك صور حيرام»، المحفوظ في متحف بيروت، والمنحوت على سطحه الجانبي الكبير أحد مشاهد الطقوس الجنائزية، و«تابوت ملك صيدا أشمون عزر» الحجري المحفوظ في متحف اللوفر في باريس، وعليه كتابة فينيقية تتعلق بلعنات تلحق المعتدين على القبور، إضافة إلى أنصاب حجرية تمثّل الربّ بعل ينزل المطر.

وثمة منحوتات تمثل مراكب فينيقية بعضها محفوظ في متحف بيروت، مما يؤكد أن الفينيقيين كانوا أول أمة بحرية في التاريخ، وأعظم الملاحين، وأمهر التجار في تاريخ الحضارة الإنسانية.

كما توجد روائع عاجية مثل : بوق من ناب فيل يمثل الربة عشتار يحيط بها أسدان مجنحان، ورأس أميرة من العاج تزين جبهتها حلي ذهبية، وتتميز قسماتها بقوة تعبير ينمّ على مشاعر غامضة، وتمثال صغير من العاج لامرأة تعزف بآلتها الموسيقية، ولوح من العاج كان يزين عرش الملك الأغاريتي، تبدو على كل من جانبيه ستة مشاهد مختلفة تمثل مختلف الفعاليات الفينيقية، ومائدة عاجية كبيرة مستديرة الشكل تمثل وردة في الوسط ونسوراً باسطةً أجنحتها، وظباء، وغطاء علبة من العاج يمثل ربة جالسة تحيط بها عنزان وتقدم إليهما السنابل والأعشاب. كل ذلك يدل على أهمية المصنوعات العاجية في بلاد الفينيقيين وقيمتها الفنية وأهميتها الجمالية.

وينسب فضل ابتكار الزجاج إلى الملاحين الفينيقيين. ومن أجمل هذه الابتكارات قمقم عاتم غير شفاف اكتشف في أغاريت، له شكل أسطواني مزين بخطوط أفقية متوازية من المينا البيضاء.

ومن الآثار الفينيقية: تمثال برونزي لرب المطر البعلبكي، وجلجل برونزي يعلوه رأس عنز، وتماثيل برونزية صغيرة تمثل الأضاحي. ومن الآثار الحجرية أوانٍ من الألباستر (الرخام الشفاف)، وتمثال شخص يحمل على كتفه الأيسر جرة صغيرة كانت تحفظ فيها العطور أو المساحيق التجميلية النسائية، ومن الآثار الفخارية الفينيقية تماثيل الربة الأم تلمس بيديها ثدييها رمز الأنوثة والخصوبة والأمومة، ومن تماثيل الحيوانات الفخارية تمثال ثور تعلو ظهره عروة، وهو يرمز

إلى الأرض والزراعة، وتمثال رأس أسد فاغر فاه. وتدل الأواني الفخارية والخزفية مختلفة الأشكال والأنواع والحجوم على مختلف ميادين استعمالاتها في الحياة، وقد زينت بالرسوم المختلفة، مثل قائد يعود على عربته ويستقبله مواطنوه، أو حيوانات بحرية مثل الأخطبوط والسمكة وغيرها. والجدير بالذكر أن هذه الرسوم الفنية تشكل بدايات تطور فن الرسم والتصوير.

كما نبغ الفنانون الفينيقيون في ميادين الصياغة الذهبية والفضية والبرونزية والخزفية، ويدل على ذلك قرط ذهبي مكتشف في أغاريت تزينه خيوط ذهبية دقيقة الصنع، والخواتم الفضية الجميلة التي نقش على فصها الفضي مشاهد مختلفة مثل الغزال، والثور، والكائنات الخرافية، والزخارف النباتية وغيرها، والمشابك الفضية التي يتوسطها ثقب، والصحن الذهبي المزين بمشهد صيد جميل، أبدعه الصائغ بطريقة الطَّرْق، أضف إلى ذلك طاسة ذهبية مزينة بمشاهد فنية جميلة. والجدير بالذكر أنه عثر في أغاريت على قوالب لصناعة العقود وغيرها من الحلي الفينيقية الجميلة المختلفة، وكان الشاعر اليوناني هوميروس قد أشاد بمهارة فناني صيدا ووصفهم بـ «رجال حذق ومهارة في الأعمال اليدوية الدقيقة».

وفي مجال المصنوعات اليدوية المعدنية المختلفة كالأسلحة والأدوات والشص لصيد السمك، توجد كفتان صغيرتان مستديرتان من ميزان صائغ اكتشفتا في أغاريت مع مجموعة من الوزنات المعدنية لها أشكال حيوانات مثل: غزال، وثور، وبقرة، وأسد رابض، وطائر، وبط أو شكل كرة أو زيتونة.

وبرع الفنان الفينيقي في صنع الأختام المبسطة والأختام الأسطوانية التي كانت في بادىء الأمر بمثابة تميمة تحمي صاحبها وحاملها من الروح الشريرة وتجلب له الحظ السعيد، وكان لهذه الأختام الأسطوانية استعمالات مختلفة في

ميادين الحياة اليومية الدينية والاقتصادية، وتمثل مشاهد مختلفة للأرباب والطقوس الدينية والعادات الاجتماعية والتقاليد المتوارثة، إضافة إلى الزخارف الهندسية والنباتية، وكانت هذه الأختام تصنع من أحجار الهيماتيت والستاتيت والصدف والخزف وغيره. وعثر في أغاريت على مجموعة من الجعل المصرية الجميلة والمهمة التي كانت من أدوات الزينة النسائية والذكريات الحياتية، وكان لها أهميتها في الحياة العامة والدينية والاجتماعية.

وبعدما كانت التجارة والمبادلات التجارية تعتمد على السبائك المعدنية وأوزانها؛ بدأت كل من المدن الفينيقية (مثل أرواد وعمريت وجبيل وصيدا وصور...) تسك نقودها المعدنية الجميلة المختلفة التي تمثل على وجهها سفينة فينيقية وسط أمواج البحر وتمثل على ظهرها الأسد ينقض على الثور، وأخرى تمثل صورة جانبية لرأس «تيكة» ربة ثروة المدينة، وتتميز نقود مدينة عمريت بكتابة اسمها باللغتين الفينيقية واليونانية بجانب صورة السفينة الفينيقية عديدة المجاذيف.

ويظهر على قطع أخرى مبنى معبد جوبيتير في بعلبك، أو صورة الربة عشتار عند مدخل المعبد الذي تعلوه جبهة معمارية مثلثة.

واشتهر الفينيقيون بصناعة النسيج وصباغة الأرجوان الأحمر الجميل، وقد عثر على كميات كبيرة من أقراص المغازل الحجرية، والعاجية، والزجاجية، والخزفية وغيرها، تدل كلها على أن النسيج كان صناعة فنية عائلية ومنزلية، واشتهر الفينيقيون بالغناء والموسيقى في طقوسهم الدينية المختلفة، كما اشتهروا بصناعة الأدوات الموسيقية المختلفة كالعود والمزمار والدف والطبل، وإن تدوين الموسيقى على رقيم طيني مسماري مكتشف في أغاريت يدل على أهمية الغناء والموسيقى لدى هذا الشعب.

وقد اشتهرت المدن الفينيقية بصناعة المراكب والسفن البحرية التجارية والحربية المختلفة التي تؤكد أن الفينيقيين كانوا أول شعب في العالم لبى نداء البحر، وتحمل مغامرات الرحلات البحرية المختلفة بجرأة وشجاعة، وكانوا أول من طاف حول القارة الإفريقية، وثمة تساؤلات حول نظرية وصولهم إلى سواحل القارة الأمريكية.

حسب الدراسات العلمية والتاريخية، يعتبر الفن الفينيقي فن تركيبي. أصالته هي أبعد من أن تكون فريدة ومبتكرة، فهذا الفن متنوع، شعبي، وهو في الغالب نتيجة لمجموعة معقدة من التأثيرات في منطقة مفترق طرق العالم القديم، التي تعرضت للاحتلالات الأجنبية المتعددة وإلى وجود ونفوذ مختلف الحضارات المجاورة.

كثيرا ما انْتُقِدَ الفينيقيين لميلهم إلى التقليد والتزوير. واتهموا؛ صواباً أو خطأ؛ للنسخ من جيرانهم وعدم وجود الإبداع الشخصي. وقد قَسَّمَ "جورج كونتينو" في كتابه (الحضارة الفينيقية)؛ الفن الفينيقي حسب فترتين زمنيتين: تبدئ الأولى مع أوائل الألف الأول قبل الميلاد، خلالها انتسب وتأثر الفن الفينيقي بالفن المصري وفن بلدان بحر إيجه، وعموماً؛ فقد قَلَّد الحرفيون الفينيقيون الكثير من فنون العالم القديم. أما الزمن الثاني الممتد من الألف الأول قبل الميلاد وحتى نهاية العصر اليوناني الروماني فلم يكن مجرد تقليد، ولكنه كان تنسيقي، حيث أن الفينيقيون مزجوا ووفقوا للتوصل إلى إبداعاتهم وإنتاجاتهم الخاصة.

تعود بدعة الفن الفينيقي إلى تأقلمه مع مختلف الاتجاهات الفنية المتوافرة في ذلك الوقت ليتناسب مع الطلب أو الأمة الشعوب المقصودة لهذه المنتجات. الابتكار الرئيسي في هذا الميدان هو مواءمة الفن مع الحياة اليومية، ليصبح على

متناول الجميع وعلى نطاق واسع. لم يعد يقتصر الفن إلى فئة اجتماعية معينة، لكنه على يد الفينيقيين اصبح إنتاج عامي وشعبي والذي سَهَّل ذلك هي عمليات التجارة والتسويق في جميع مناطق البحر الأبيض المتوسط .

لم تكن مجالات الفن الفينيقي مخصصة لمنطقة معينة أو لاستخدام محدود لكنها كانت واسعة، عالمية ومتنوعة. وبين الفنون المعتمدة نجد الكثير من القطاعات؛ كعمل الزجاج والسيراميك والمعادن والعاج والمجوهرات وإكسسوارات التجميل والتصنيع الأرجواني والعملات، ...إلخ، دون أن ننسى قطاع العمارة والهندسة أو الفن في خدمة الإلهية والمقدسات.

نحت عاجي فينيقي يمثل مولد إله الشمس هوروس داخل زهر اللوتس تحميه الآلهة (٨٥٠-٨٠٠ق.م)

تماثيل آلهة فينيقية وجدت في صور

قناع رجل وجد في أحد الأضرحة الفينيقية

تماثيل صغيرة من الطين المشوي (فن فينيقي من قرطاجة)

قلادة من الذهب من بيبلوس تمثل صقراً مبسوط الجناحين (ق١٤.١٥ق.م)

قطعة معدنية فينيقية للزينة (تحمل هذه القطعة الجعل المقدس المصري الأصل)

* آداب :

كان لاكتشافات مدينة أوغاريت "رأس شمرا حاليًّا" في سوريا سنة ١٩٢٨ (الأدبيّة– الدّينيّة) أثرٌ هام في معرفة التّراث الأدبي الفينيقي، فالملاحم (الأدبيّة – الدّينيّة) مثل "أقهات بن دانيال" التي كتبت في القرن الرّابع عشر بالأبجديّة الأوغاريتيّة تعتبر انعكاساً للنّشاط الأدبي في هذه المدينة، إضافة إلى ذلك العديد من الألواح الحجريّة التي خطّطت بالمسماريّة والتي وُجدت في أوغاريت، وتضمّنت

علوماً وآداباً وفنوناً وأدياناً لمختلف أنواعِ حضارات الشّعوب القديمة تعود إلى الإنتاج الفكري الفينيقي، وهذا دليلٌ على عكس ما قاله المؤرّخون القدماء (اليونان– الرّومان– المصريّون – البابليّون – الآشوريون) في كتاباتهم بأنّ الفينيقيّين شعب تجاريٌّ فقط. لكن للأسف الشديد ن أكثرية الكتابات الفينيقية كانت على ورق البردى وطبعاً لم يبق منها شيء.

* الاقتصاد :

♦ الحياة الاقتصادية في فينيقيا :

ازدهرت الحياة الاقتصادية في فينيقيا بسبب تقدمها صناعة وتجارة وحرفة. تركز عمل الفينيقيين على البحر فعملوا بصيد السمك والإسفنج والملاحة وصناعة السفن. كما أنهم برعوا في صناعات عديدة منها صناعة العاج والزجاج والأقمشة الأرجوانية اللون والزهريات الحادة القعر والفخاريات. ساهم اطلاع الفينيقيون على صناعة الحديد (في الألف الثاني قبل الميلاد) في صناعة الخزف. كان الفينيقيون يقلدون الصناعة المصرية والكريتية والميسينية مما مكنهم من بلوغ منزلة عظيمة في الصناعة والفن. بعض هذه الصناعات (الفخار والزجاج) محفوظة الآن في متحف طرابلس.

أما بالنسبة للتجارة في فينيقيا، فقد بلغت أعلى درجاتها وتنوعت الأغراض التي تاجروا فيها فكان منها الصباغ الأرجواني والأقمشة، الزجاج، المعادن، الفخار، النبيذ، الغار والأرز، الخشب... كل هذه الأشياء كانوا يتبادلونها مع اليونان، إيطاليا، إسبانيا، والجزر المتوسطية. كما أنهم خاطروا بالإبحار إلى أبعد من ذلك حتى وصلوا الرأس الأخضر في بريطانيا.

* الزّراعة :

لم يهمل الفينيقيّون أياً من مواردهم الاقتصاديّة، فقد أنبتوا في أرضهم كلّ ما كان بإمكانها أن تعطيهم. ونوّعوا من الصّناعات حتّى لا يشتروا من الخارج. لكنّهم اهتمّوا بالتّجارة لأنّها المورد الأساسي.

♦ معطيات الطّبيعة :

لم يكفِ سكّان فينيقيا ما كانت تُنتجه أرضهم من غلال. لا لأنّهم أهملوا الزّراعة، بل لآنّ مساحات البلاد ضيّقة. ففينيقيا ساحل مستطيل، تتعاقب على شواطئه السّهول الرّسوبيّة والرّؤوس الصّخريّة. وتغطّي الغابات جباله فلا تترك للزّراعة إلاّ قدراً ضئيلاً من السّفوح المطلّة على المتوسّط. وتتوزّع المزروعات في منطقتين سهليّة تغلب فيها الخضار والحبوب والنّخيل، وجبليّة تغلب فيها الكرمة والزّيتون. ولم يوفّر الفينيقيّون أيّ مساحة؛ من أيّ سعةٍ كانت؛ دون زراعة. لذا جدّوا في تمهيد الجلول منعاً لانجراف الأتربة مع الأمطار والسّيول.

♦ طرق الإنتاج :

واعتمدوا في الحراثة على سكّة خشبيّة مجوّفة، تتّسع للبذار. تجرّها الثّيران أو الحمير أو الإنسان إذا لزم الأمر. وحصدوا السّنابل بمنجل بدائيّة مربوطة إلى حجر. ودرسوا الحنطة على البيادر تحت النّورج. وذرّوها على طبقٍ أو بالمذراة. وجمعوها في أكوارٍ لفصل الشّتاء.

♦ الإنتاج :

واشتهرت خمور فينيقيا في الخارج. وقرطاجة بنت صور باعت خمورها اللّذيذة من روما. واستبدل الفينيقيّون أغراس الزّيتون البرّي أغراساً جديدة من

الخارج. فاستعاضوا بإنتاجهم عن الاستيراد. وافتنّوا في زراعة الرّمّان، ونقلوها إلى قرطاجة. وذاع صيت بعض الكتب الزّراعيّة في قرطاجة فنقلت إلى اللاّتينيّة.

♦ الغابات :

وكانت سبباً في إثارة أطماع جيران فينيقيا بها. وقد غطّت كلّ الجبل حتّى بدت معيناً لا يشحّ. فأسرف الفينيقيّون في قطعها. ومصر كانت أوّل من اتّجر مع جبيل من أجل أخشابها، حتّى إذا تضاءلت إمكانات تصدير الأخشاب من جبيل أفل نجمها. ولمّا دانت فينيقيا لسلطة الآشوريّين والكلدانيّين والفرس، باهى هؤلاء ببناء قصورهم من خشب الأرز في لبنان. وكثيراً ما فرضت الضّريبة على فينيقيا خشباً.

* الصّناعة :

أ- صناعة الزجاج والعاج :

من أخبار المؤرخ بلينيوس القديم، يتواجد فصل عن اكتشاف الزجاج من قبل الفينيقيين. فروى عن قارب فينيقي رسى في جنوب صور، ونزل البحارة على الساحل واستعملوا بعض الكتل من نترات البوتاسيوم لحماية وتأجيج نارهم. فذابت النترات واندمجت مع رمال الشاطئ، وأدت هذه العملية إلى خلق مجموعة من الأشكال الملونة ذات مظهر ملحوظ وجميل. فكان هذا أول وحي من صناعة الزجاج. وينقسم المؤرخون حول مصدر اختراع الزجاج، فالبعض يقولون أن الفينيقيون هم وراء هذه الصناعة. أما البعض الأخر فيعزوها إلى المصريين، ويعتمدون أن الدور الفينيقي اقتصر على ترويجها في أنحاء العالم القديم. مع تطور الاكتشافات التاريخية ووفقا لأحدث النظريات والدراسات، اتضح أن منشأ صناعة

الزجاج يعود إلى بلاد ما بين النهرين. وانتشر من بعدها نحو مصر، ليعود إلى مراكز الساحل المشرقي، ليتوافق مع التغيرات التاريخية والسياسية.

جعلوا الزجاج شفّافاً، ونوّعوا من أصنافه. فصنعوا منه الكؤوس والقناني وقوارير الطّيب. وافتنّت كلٌّ من صور وصيدون في تلوينه. فأخرجتا منه الأبيض والأصفر والأحمر والأزرق. وجعلتا من صناعته فنّاً حتّى وصل الاعتداد لديهم إلى توقيع أسمائهم على منتجاتهم الزّجاجيّة (من أمثال جَاسُون وأرْتَاس) وقد غدت الأقراط والأساور والخواتم والعقود مرصّعة بأحجار زجاجيّة، شديدة الشّبه بالحجارة الكريمة. والكؤوس الزّجاجيّة الفينيقيّة كان غالباً جوائز للفائزين في المباريات الرّياضيّة والجسمانيّة لدى الإغريق. والإلياذة غنيّة بالشّواهد على ذلك. أمّا العاج، وهو مادّة غريبة عن فينيقيا، فقد استُقدِم من الهند عن طريق ما بين النّهرين، أو من أفريقيا عن طريق مصر. صنع منه الفينيقيّون صناديق صغيرة، وتماثيل وزخرفوها. ووجدت أعداد ضخمة من مصنوعات العاج في النّواويس والمقابر، لأنّها كانت تودع مع الميّت. ومعظمها موجودٌ اليوم في المتحف البريطاني.

بين العلوم والأسطورة، من الأكيد أن الزجاجيات المصنعة والمنشورة من قبل الفينيقيين كانت مشوبة مع الألوان الغنية والزفاف وتتكون من أشكال مختلفة تبعاً للحاجة أو وجهة استخدامها واستعمالها. من أجل روتين الحياة اليومية، صَنَّعَ الفينيقيون الأكواب والزجاجات وقوارير المراهم. في حين صناعة الخرز الزجاجي والمعلقات كانت مخصصة للمواد الفاخرة والمجوهرات. مع الاعتبار أن دور الفينيقيين اقتصر على العموم لتأمين وضمان الاستمرارية في صناعة الزجاج، فمن الأكيد بأنهم كانوا وراء اختراع طريقة الزجاج المنفوخ التي طالما كانت أخصائية صيدا. وبفضل العلاقات التجارية التي ربطت المدن الفينيقية مع سائر أنحاء العالم

القديم، عُمِمَتْ هذه الصناعة على جميع الشعوب وخاصة حوالي البحر الأبيض المتوسط.

ب- صناعة السيراميك :

لم تتلقى دراسة السيراميك الفينيقية نفس درجة الاهتمام التي كُرِّسَتْ للفخار اليوناني. ويرجع ذلك أساسا إلى طبيعته وإلى أشكاله التي لا يمكن أن تتنافس مع جماليات الإنتاجات اليونانية الأكثر جاذبية ومهارة. استمدت صناعة

السيراميك في المدن الفينيقية مباشرة من الفخار السرياني الفلسطيني وذلك منذ نهاية العصر البرونزي. استعملت في العديد من المجالات المنزلية، التجارية أو الجنائزية. تم تقسيمها إلى شكلين كلاسيكية، ذات الرؤوس المفتوحة أو الواسعة وتلك الضيقة أو المغلقة.

تتعلق وظيفة الأوعية الفخارية على شكلها، فالمفتوحة كالصحون كانت تستخدم للأغذية والطعام، أما المغلقة كالجرار، مع فتحة صغيرة على رأسها، كانت تستعمل لحفظ ونقل السلع الغذائية أو السوائل (القمح، النبيذ، النفط، ...). الأباريق للشرب أو لصب السوائل، تتميز بشفة أو طرف مقصوص. هنالك أيضاً الإبريق ذات الصنبور المرفقة إلى الجانب على طول البطن، وعند قاعدته يتواجد مصفاة. بعض الجرار كان من الممكن استعمالها في الطقوس الجنائزية، وغالباً ما تستخدم في القبور، كأواني لمراسم حرق الجثث، ومغلقة في بعض الأحيان بواسطة الصحون. كانت المنتجات الفينيقية من الفخاريات تحت تأثير نماذج من المراكز المجاورة (السامرة أو قبرص). البعض منها كانت مستوردة أو مقلدة، أو من إلهام غربي: كاليونان وصقلية أو من الأقاليم حيث استقر الفينيقيين أو أنشأوا مراكز التجارية، مثل سردينيا أو شبه الجزيرة الأيبيرية.

ج- صناعة الخزف :

برع الفينيقيّون في صناعة الخزف. وصنعوا منه كميّات ضخمة من الآنية والتّماثيل الصّغيرة. ولمّا كان اهتمامهم بالنّاحية التّجاريّة قبل كلّ شيء، لم يسهروا على إخراج تحفٍ فنّيّة، بل على إخراج آنيةٍ رخيصة، وتماثيل مرغوبة في الأسواق. وتطوّرت صناعته حتّى جبلوا منه النّواويس. وأكثر الآنية الخزفيّة وجدت في المقابر، إذ حوت العطور أو لوازم معينة تُدْفن مع الميّت. وبعض الآنية الّتي وجدت

في "كفر جرَّه" (بالقرب من صيدا) تدلّ على أنّهم توصّلوا إلى جعل الخزف رقيقاً متماسكاً لا بل رنّاناً وفي ذلك الكمال.

د- الحرف اليدوية:

ما هو الشيء الأكثر جاذبية، والأخف وزنا لشحنه وبالأخص الأكثر ربحا؟ طبعاً، هذا الإنتاج لا يمكن إلا أن يتعلق في كل ما يختص بالمجوهرات. عرف الفينيقيون منذ البدء أهمية هذه الحرفة ودورها الفعال في التجارة وعملوا على ترويجها وتطويرها. كان الذهب، الأفضل جودة والأغلى ومن أهم المواد المستعملة والأكثر حفاظا. أما الفضة فكانت أقل استخداماً بسبب تدهورها وارتداءها بمرور الزمن. وغالباً ما استخدم البرونز والأحجار الكريمة والزجاج في تكوين وتكملة وتزين هذه المجوهرات. وكانت الأشكال الزخرفية المستعملة مستوحاة في الغالب من الأسلوب المصري، الأكثر شهرة في تلك العهود والأكثر طلباً. أعطيت الأفضلية للزخارف النباتية مثل الوريدة أو زهرة اللوتس والزخارف الحيوانية مثل الجعران وأبو الهول والصقر والأسد.

الفينيقيون أيضاً برعوا في الإنتاجات البرونزية ومستحضرات العاج، مع العلم أن المواد الخام لهذه الصناعتين لم تتواجد على الساحل الفينيقي بل استوردت من بعض المناطق النائية. جاء العاج من الهند من قبل الكلدانيين ومن الجزيرة العربية ومصر. أما البرونز الذي هو عبارة عن سبيكة من النحاس المتوافر على الشواطئ الإسبانية ومن القصدير الموجود في إنجلترا، حيث انشأ الفينيقيون العديد من المدن والمراكز التجارية لاستخلاص هذه المواد ونقلوها على سفنهم واستعملوا جزيرتي مالطا وقبرص كمستودعات لحفظها قبل شحنها إلى مدنهم لتصنيعها ومن ثم استخدامها أو بيعها.

كانت الصناعات من المجوهرات الفينيقية متنوعة وعديدة المظاهر، من أبرزها الأقراط المذهبة على شكل هلال أو قرص شمسي، والأساور، والخواتم، والقلائد المزينة مع الخرز الزجاجي، والمعلقات على جميع أشكالها...

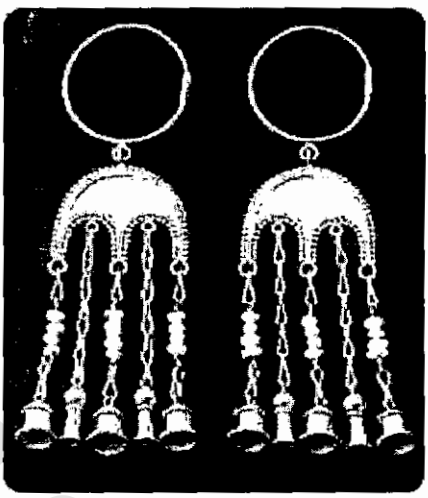

انتشر الإنتاج الفينيقي على جميع البلدان المعروفة في العصور القديمة. كان الفن في خدمة الجمال والزينة، استعمل أيضاً في مجالات التجارة والخدمات، ومَثّلَ وسيلة لإثراء التجار والبحارة الذين تجولوا في جميع أنحاء البحار بحثاً عن أسواق جديدة لبيع سلعهم. وغالباً ما جذبت هذه المنتجات الغزاة الطامعين بثروات المدن الفينيقية لملء قصورهم بالغنائم التي تم الحصول عليها بعد احتلالهم وفرض نفوذهم.

وضع الحرفيون الفينيقيون أعمالهم في خدمة الفنون القابلة للتكيف والخفيفة للنقل بدافع التجارة والمقايضة، ومنذ ذلك العهد ظهرت هذه الفنون الثانوية أو الفنون الزخرفية المسمية بال "athyumata"من قبل الإغريق . قيمة

الغالبية من هذه المواد كانت مزدوجة، الأولى فنية بحتة، أما الثانية فباتت مرتبطة بالحاجة الفعلية والفائدة العملية في الحياة اليومية.

إنتاج الأرجوان وتصنيع المنسوجات العالية الجودة أثارت الحسد والحماس في المراكز التجارية، عند جميع المشترين الذين كانوا ينتظرون وصول السفن الفينيقية. إن ارتداء الملابس الأرجوانية لا يزال حتى اليوم، مرتبط بالطبقات الاجتماعية المتميزة. فمرور الوقت وتردي حالة هذه المنتجات عبر الدهور لم يسمح للحفاظ على أثر مرئي في هذا المجال، الدلائل الوحيدة على هذه المصنوعات وشهرتها، تعود إلى بعض كتابات المؤلفين القدماء والوثائق التاريخية.

هـ – الصّباغ الأرجواني :

احتكرت صناعته صور وصيدون. وهو كناية عن صدف طبيعي، منشأه صدف (الموريكس). تكاثر على شواطئ فينيقيا. فجمعوا منه كميّات ضخمة حتّى غدا نادراً اليوم. والصّدف بعد انتزاعه عن الشّاطئ، يَنْضح منه سائلٌ أصفر تُلوّن به

الأنسجة. حتّى إذا جفّ النّسيج المصبوغ استحال لونه بنفسجياً. وازداد رونقاً كلّما تعرّض للنّور. وافتنّ الفينيقيّون في جعله قاتماً أو زاهياً. ويتّضح من ذلك أنّ الصّباغ لم يكن أرجوانيّاً بل بنفسجيّاً إنّما الدّعاية صوّرته أحمر قرمزيّاً. وقد تشهد مصانع الأرجوان بالقرب من مدينتي صيدون وصور. وتشهد على ذلك تلول صدف الموريكس الباقية حتّى الآن جنوبي صيدا. ولمّا كانت الرّائحة المنبعثة منه كريهة، اهتمّ الفينيقيّون بإقامة المصانع خارج نطاق المدينة. وطوّروا صناعته حتّى قضوا على المضاربة الإيجيّة، بعد أن كانت متفوّقة في أواخر الألف الثّاني قبل الميلاد.

و- المصنوعات المعدنيّة :

من بين المواد الأوّليّة المعدنيّة نذكر القصدير والنّحاس والحديد والذّهب. والقصدير استقدموه في البدء من آسيا، من بلاد عيلام، ومن آسيا الصّغرى. ولمّا برعوا في الملاحة أتوا به من "أتْرَوْرِيَا" في إيطاليا اليوم، ومن أسبانيا، وانتهى بهم المطاف إلى جنوبي إنكلترا (بلاد الكورنواي). والنّحاس استوردوه من جبال أمانوس، والحديد استخرجوه محليّاً. وكفاهم من هذه المعادن كميّات ضئيلة نظراً للاستعمال المحدود، لتأمين حاجاتهم من السّلاح والأواني والتّماثيل والكؤوس والنّقود، الّتي تحمل سكّتها رسم مركب فينيقي، أمّا الذّهب فقد خصّوا به الحليّ وما شابهها من الكماليّات.

ز- صناعة السّفن :

إنّ العامل الأساسيّ لازدهار صناعة السّفن، هو توفّر المادّة الأوّليّة، ألا وهي الخشب. واعتماد الفينيقيّين على البحر في تنقّلاتهم وتجارتهم اضطرّهم إلى تطوير هذه الصّناعة، فانتهوا إلى المراكب الكبيرة. وهذه تنقسم إلى فئتين: مراكب تجاريّة ومراكب حربيّة. والمركب التّجاري طويل، يجلس في كلّ جانبٍ منه صفٌّ أو

اثنان من المقذّفين حسب حجم السّفينة. مقدّمته مرتفعة تنتهي برأس حيوان. وفي وسطه سارٍ يحمل شراعاً. أمّا المركب الحربي فمقدّمته حادّة معدّة للصّدام. وتحمل المراكب في مؤخّرتها عارضتين طويلتين تقومان مقام الدّفّة. وذاع صيت الأساطيل الفينيقيّة. حتّى غدت فينيقيا قوّة بحريّة تطمع بها جميع الإمبراطوريّات المجاورة في مصر وما بين النّهرين وفارس. وعن مراكب قرطاجة نقلت روما نماذج مراكبها فيما بعد.

* ميزة الصّناعة الفينيقيّة :

إذا استثنينا صناعة السّفن، نجد أنّ مُجمل المصنوعات الفينيقيّة تمتّ بصلةٍ وثيقةٍ إلى الكماليّات؛ شأن الزّجاج، والصّباغ الأرجواني، والخزف والعاج. احتكروا بعضها (كالأرجوان) وضخّموا أسعاره. وحين قصّروا حيال براعة غيرهم في المصنوعات، عمدوا إلى إخراج نماذج تجريّة غير متقنة ولكنّها سهلة التّصريف كالمصنوعات الخزفيّة مثلاً. ومعظم النّماذج المعتمدة لديهم كانت صغيرة الحجم، سهلة الحمل، لا خوف من عطبها في المراكب. وهذا ما يفسّر توزّع المنتجات الفينيقيّة في كلّ أنحاء المتوسّط، أو في البلاد الدّاخليّة التي اتّجرت معهم. وما اعتماد هذه الصّناعات وإتقانها إلاّ في سبيل تحاشي شرائها من الخارج، لئلا يحدّ شراؤها من أرباحهم. فلم يكنْ الفينيقيّون صلة وصلٍ فقط، بل غدوا المنتجين لهذه المصنوعات الكماليّة. والطّبيعة بدورها لم تكن لتهيئ فينيقيا لأيّ دورٍ صناعيّ، وبالرّغم من ذلك استطاع الفينيقيّون أن يأتوا الكثير من المنتجات الصّناعيّة. وحتّى في تقليد صناعات غيرهم، أضفوا على إنتاجهم مسحة من الإتقان البارع، ممّا يدلّ عليه صفاء زجاجهم وتلوينه واستعماله مكان الحجارة الكريمة. وصناعة السّفن كانت المدى الأرحب لإبراز براعة الفينيقيّين الصّناعيّة، إذ تضافرت لإتقانها جميع

العوامل البشريّة والطّبيعيّة؛ من خشب وخبرة ملاحيّة ومعلومات جغرافيّة وفلكيّة وملاءمة السّاحل للصّيد والسّفر.

* التخطيط والهندسة المعمارية :

معالم الطبيعة للشاطئ الشرقي للبحر المتوسط لم تكن بغريبة عن اختيار الإنشاءات الحضرية للشعب الفينيقي. بُنِيَتْ معظم المدن على الهضاب والنتوءات أو الجزر، على بعد مسافة قصيرة من الساحل، أو على حافة البحيرات الضحلة أو الخلجان التي تسمح مرور القوارب بسهولة. هذا النوع من المنشئات كان يؤمن للسفن أفضل الظروف الممكنة لصياغة وتحسين نظام الدفاع المناعي. هذه المواقع كانت محمية بشكل طبيعي، فالجزر المحاطة بالمياة هي الأقل سهولة للهجوم أما النتوءات فتشكل سد طبيعي ومركز ملائم مرتفع يمكن أن يستوعب مبنى شديد التحصين.

كان تنظيم المستوطنة الفينيقية يدور حول هندسة ثابتة ومتناسقة. تتألف نواة المدينة من الأكروبوليس المحاط بالجدران، ومن ثم تتفرع الشوارع، وأنحاء الأحياء السكنية، والمباني الدينية وأماكن للأنشطة التجارية والصناعية.

بنيت الأماكن المقدسة في بعض الحالات في مراكز مخصصة من المدينة (معبد أشمون، بستان الشيخ نبوي، صيدا، أو المعبد الفينيقي في مدينة صور من نهاية الفترة الفارسية)؛ التي أصبحت بذلك "ركن ديني" أو "حي مقدس". أما المدافن فتواجدت غالباً خارج أماكن المعيشة، أحياناً كانت القبور تشكل حفرة أو بئر (المقبرة الملكية في جبيل) أو تارة على مظهر :"dromos" مصطلح يوناني يشير إلى ممر طويل ومنحدر يؤدي إلى قبر محفور تحت الأرض.

لا تزال المعلومات في هذا المجال مترددة وغير دقيقة لأنه قد تم إعاقة البحوث الأثرية عن طريق تراكم المرافق والمنشآت القديمة والحديثة. يعود فضل بعض هذه التفاصيل أساساً إلى الوثائق الأثرية من الدول المجاورة حيث تمكن المؤرخين من إعادة تخطيط ودراسة البيئة المعيشية عند الشعب الفينيقي ومدنهم. على سبيل المثال استطاع العلماء، بفضل النقوش والرسومات الآشورية (المنحوتات الجدارية من قصر سنحاريب)، تقديم أدلة عن المباني الخاصة التي تواجدت في المنطقة، والمنازل المتعددة الطوابق مع أبواب المداخل المحاطة بالأعمدة والنوافذ ذات الدرابزين. ولكن إذا كنا لا نعرف إلا القليل عن الهندسة الفينيقية ومنشآتهم المعمارية الحضرية، لا يمكننا أن ننسى معبد سليمان في القدس، واحدة من أهم الإنجازات والأكثر إثارة للإعجاب من العمارة الفينيقية، والذي تم بناؤه من قبل عمال صور وعلى رأسهم المهندس حيرام المعروف تحت اسم "حيرام أبي" المعماري. بالإضافة إلى التخطيط والعمارة من الممكن أن تشمل أيضاً مختلف الإنشاءات الحجرية مثل المسلات، والنقوش، والتماثيل، والنعوش (ومن أشهرها نعش احيرام ملك بيبلوس أو اشمونعازر ملك صيدا) التي تأثرت بالنموذج المصري، وفي وقت لاحق، بالإلهام الفني اليوناني .

* الملاحـة :

نشطت الملاحة في فينيقيا نتيجة اعتباراتٍ عدّة منها: صعوبة التّنقّل البرّي، ووفرة الخشب، وملاءمة الموقع الجغرافي بالنّسبة للعالم القديم. وعزّز الفينيقيّون ملاحتهم بنشاطات خاصّة، كتطوير صناعة السّفن، وحسن اختيار مواقع المرافئ، وتسخير المعارف الجغرافيّة والفلكيّة، وأخيراً إنشاء المستعمرات لتكون أداة اتّصال.

ظروف الملاحة :

جهل الفينيقيّون استعمال البوصلة. ولكنّهم اهتدوا إلى الشّمال بواسطة النّجم القطبي، وقد سمّاه الإغريق باسمهم أي "النّجم الفينيقي". وشرعوا في التّنقّل على طول الشّاطئ، لا يغامرون في عرض البحر، وتجنّبوا المغامرة في اللّيل حتّى لا يضيعوا. وجعلوا مدنهمْ محطّات تجاريّة بين الواحدة والأخرى مسيرة نهار. واستفادوا من الجزر المنتشرة في بحر إيجه، ورادوا جميع مناطق الأرخبيل الإغريقي. أمّا الوصول إلى مصر في الجنوب فقد تمّ على مراحل. لازموا الشّاطئ حتّى وصلوا إلى الدّلتا. وهكذا دواليك حتّى انتهى بهم إلى خارج المتوسّط.

الرّحلات :

وزاد الكسب التّجاري من طموح الفينيقيّين. فنظّموا رحلات استكشافيّة. وكان إحداها لحساب الفرعون "نِخَاوْ". ويخبرنا هيرودوتس بأنّ هذا الفرعون قد طلب من الفينيقيّين، حوالي عام ٦٠٠ ق.م، أن يقوموا برحلة غطّى نفقاتها، انطلقت من شواطئ البحر الأحمر. واستمرّت ٣ سنوات ودارت حول "ليبيا" والمقصود أفريقيا. وعادت عن طريق البحر المتوسّط إلى مصر. وعندما وصلت مراكب الرّحلة العشرة غربيّ الشّاطئ الأفريقي، تمكّنت العاصفة من إحداها ففصلته عن سائر المراكب. وحملته التيّارات المائيّة والرّياح التّجاريّة حتّى شرق البازيل. أمّا الرّحلة الثّانية فقد قام بها أحد مواطني قرطاجة، واسمه "حَنُّون" بتكليفٍ من مجلس الشّيوخ. والغاية من هذه الرّحلة التّفتيش عن أسواقٍ جديدة. وقد سار "حنّون" في عكس اتّجاه رحلة "نخاو". وثمّة رحلة ثالثة قام بها مواطن آخر من قرطاجة هو "حَمْلَكُن". فعبر مضيق جبل طارق. واستمرّ في سيره أربعة أشهر وصل في نهايتها إلى جنوبي إنجلترا. وقد تمّت الرّحلتان القرطاجيّتان ما بين ٤٥٠ و ٣٥٠ ق.م.

♦ طرق تجارة فينيقيا الواسعة :

وتميز الفينيقيون بنشاطهم التجاري وخاصة الملاحة حيث استولوا على كل تجارة البحر المتوسط. كما أسسوا مستعمرة تجارية لهم في ساحل تونس (قرطاجة). كما يؤكد الجغرافي الروماني "سترابو Strabo" أيضاً أن الفينيقيين انطلقوا من البحرين (الساحل الشرقي لجزيرة العرب) نحو العراق سالكين طريق الهلال الخصيب إلى الساحل الشامي، حيث بنوا مدنهم وانشأوا حضاراتهم الرفيعة التي نشروها في البحر المتوسط بأسره. ويدعم هذا الرأي أيضاً ما حصل بعد اكتشاف القبور القديمة التي عثر عليها رجال الآثار في الجزيرة الكبيرة (المنامة) والتي تشبه إلى حد بعيد يثير الدهشة النواويس الفينيقية. وهناك أيضا الآثار الثابتة مما يدل على أنه قد سبق للفينيقيين أن ينشئوا لأنفسهم مستعمرات تجارية في نقاط متفرقة من الخليج العربي. وكانت الحضارة الفينيقية عبارة عن مدن منتشرة على الشريط الساحلى الشرقي للبحر المتوسط لها نفس التكوين والعادات والتقاليد وكانت مرتبطة ببعضها فكرياً وعرقياً. لم يكن الفينيقيون يسمون أنفسهم بهذا الإسم، بل هو اسم أطلقه عليهم اليونان. إنما كانوا يسمون بالكنعانيين أسوة بإخوانهم سكان الداخل. يذكر أن قبل ظهور الحضارة الفينيقية كان الشاطئ الفينيقى مسكوناً بزمن طويل. وتشير الدراسات الأثرية إلى وجود إنساني في هذه الرقعة يعود إلى خمسين ألف سنة، ويستدل من اكتشافات برج قنارت ومغارة أنطلياس أن الانسان الأول في هذه المنطقة كان من أوائل الأجناس البشرية المكتشفة في المراحل السابقة من التاريخ.

* المستعمرات :

في أواخر الألف الثّاني قبل الميلاد، زالت سيطرة الإيجيّين على البحر

المتوسّط فتنفّس الفينيقيّون الصّعداء. وتوزّعت سفنهم ومن ثمّ مستعمراتهم في جميع أنحاء المتوسّط. وتشاء الأساطير أن تنسب إلى "صور" أمر إنشاء كلّ المستعمرات الفينيقيّة. إنّما الواقع غير هذا.

◂في الحوض الشّرقي :

في الحوض الشّرقي من المتوسّط، أحاط الفينيقيّون قبرص بعقدٍ من المخازن. وتصدّوا للمنافسة الإغريقيّة التي اشتدّت خلال القرنين الرّابع والثّالث قبل الميلاد والطّمع بقبرص عائد لغناها بالنّحاس والحجارة الكريمة، ثمّ لوفرة حبوبها وخمورها وزيتونها، ولموقعها الوسط بين عالمين. أمّا في آسيا الصّغرى فقد اهتمّوا بمناطق "كيليكيه" و"طرطوس" خاصّة. ومن هنالك وصلوا إلى "رودس" المواجهة للشّاطئ. إذّاك ازداد الخطر المحدق بهم، إذ قرّبهم من مناطق النّفوذ الإغريقيّة. وبالرّغم من ذلك استقرّوا في "كريت" وجزر "السّيكلاد". ولكنّهم لم يتعدّوا "الدّردنيل" في إنشاء المستعمرات خشية الابتعاد عن البلد الأم، وإن تكن قوافلهم قد وصلت إلى شواطئ البحر الأسود و"أرمينيا". وفي الجنوب لم يكن يسيراً إنشاء المستعمرات على حساب مناطق النّفوذ المصريّة. بل اكتفوا بإقامة المخازن في "ممفيس"، حيث تمتّعوا بحريّة التّجارة. وأنشأوا حيّاً خاصّاً بالصّوريّين منذ القرن الثّاني عشر قبل الميلاد، وأقاموا فيه معبداً لعشتروت.

◂في الحوض الغربي :

ولمّا اشتدّت منافسة الإغريقيّين، فضّل الصّوريّون ترك المجال مفتوحاً أمام صيدون. فنقلوا مناطق نفوذهم التّجاري إلى الحوض الغربي من المتوسّط. فاستقرّوا في "صقلية"، و"يوتيقا" (المدينة العتيقة) في تونس اليوم، و"مالطة"، مُراعين في اختيارهم لمستعمراتهم البحريّة المركز التّجاري والموقع الطّبيعي لإنشاء المرافئ.

ومن هناك انطلق الفينيقيّون إلى جنوبي "سردينيا"، والجزر المجاورة لها "كالباليار". ومن ثمّ خطّوا نحو "ترشيش" (إسبانيا) حيث حوّلوا إحدى محطّاتهم التّجاريّة إلى مستعمرة. ولكنّ الفينيقيّين حين ابتعدوا عن أرض كنعان، لم تعد نقطة ارتكازهم صور، بل قرطاجة أكبر المستعمرات الفينيقيّة على الإطلاق.

* قرطاجة :

لم تكن قرطاجة أوّل مستعمرة أُنشئت في شمال أفريقيا، بل سبقتها مستعمرة "يوتيقا" (سنة ١٠٠٠ ق.م) على نهر المجرّدة، و"زارتيس" (بيزرتا). وسُمّيت قرطاجة (المدينة الحديثة) تمييزاً لها عن جارتها "يوتيقا" (المدينة العتيقة). وقد شيّدت حوالي ٨١٤ ق.م. لتكون صلة الوصل بين صور والمستعمرات الفينيقيّة. وقد اختار لها الصّوريّون موقعاً استراتيجيّاً بين الحوضين الشّرقي والغربي للمتوسّط. حيث تتّصل برّاً بالقارّة الأفريقية، وبحراً بمختلف المحطّات والمخازن والمستعمرات الفينيقيّة في الغرب. ولم يخطر لصور يوماً بأنّ هذه المستعمرة التي بُنِيَتْ ستنافسها فيما بعد. وقد برزت عظمة قرطاجة يوم أخضع الآشوريّون فينيقيا. ولمّا هدم نبوخذ نصّر الكلداني صور البرّيّة، لم يعد لدى الفينيقيّين مدينة تفوق قرطاجة بعظمتها. فتبنّت هذه المستعمرة العملاقة سياسة صور وصيدون وكانت استمراراً لهما. وسعت للتّوسّع في الحوض الغربي للمتوسّط حتّى اصطدمت بالإغريق. فنشبت حربٌ بينهما سنة ٥٥٠ ق.م واستطاعت قرطاجة أن تكسب الرّومان إلى جانبها. ولمّا تنكّر لها الرّومان فيما بعد وتأصّل العداء قضي على قرطاجة إثر حربين عرفتا باسم الحربين البونيتين.

◂ الطّرق التّجاريّة البرية :

لم يسع الفينيقيّون أن يتاجهلوا التجارة مع بلاد "أَمُرّو"، وبلاد ما بين

النّهرين، وما ورائهما من دول وشعوب. فتشعّبت طرق القوافل في كلّ الاتّجاهات حتّى شملت بلداناً تتّصل بفينيقيا بحراً كمصر وآسيا الصّغرى. وأهمّ طرقاتهم البريّة هي :

١- الطّرق السّاحليّة : أحدها نحو الجنوب، مروراً بكلّ المدن الفينيقيّة وساحل المتوسط. وينقسم الطّريق إلى شعبتين : أولاهما نحو خليج العقبة وشبه الجزيرة العربيّة، حيث اشتهرت على الخليج العربي مدنٌ سمّيت بالمدن الفينيقيّة. والثّانية تذهب نحو مصر والسّودان والحبشة. أمّا الطّريق السّاحلي نحو الشّمال، فيعبر فينيقيا نحو "كيليكيا". وكانت عاصمة الحيثيّين "حَتّوسَه" (بوغاز كوي اليوم) نقطة التقاء بين "الطّريق الملكي" الفارسي نحو "ساردس" عاصمة "ليديا" غربي آسيا الصّغرى، وبين الطّريق الشّمالي نحو أرمينيا والبحر الأسود.

٢- الطّرق الدّاخليّة : ونعني بها طريقين رئيسيّين، أوّلهما يتفرّع عن الطّريق السّاحلي الشّمالي (شمال سوريا). فيذهب من أوغاريت نحو "حماه"، و"حلب"، و"الرُّها"، و"كركميش"، و"نِصّيبين"، فيتّصل بوادي الفرات حتّى ما بين النّهرين والجزيرة السورية، أو يذهب من "حَرّان" إلى "نينوى". والطّريق الثّاني يعبر جبال لبنان إلى الزّبداني إلى "دمشق" ثم "تدمر" فبلاد ما بين النّهرين. وهذا هو الطّريق الأقصر؛ لكنّه الأصعب. وكلتا الجزيرة العربيّة وبلاد ما بين النّهرين كانت الصّلة ما بين فينيقيا والهند. وفي طرقهم البريّة هذه، كان الفينيقيّون يقيمون علاقات الودّ مع شعوب البلدان والمناطق التي يعبرونها. فيمكّنون أواصر التّفاهم مع القبائل، ويستعينون ببعضها كسماسرة أو مرشدين. وهذا ما يسمح لهم بأن يقيموا المحطّات التجاريّة أو يُقيموا الأحياء الخاصّة بهم. كما تأمن قوافلها شرّ اللصوص المهاجمين في مناطق نائية منعزلة.

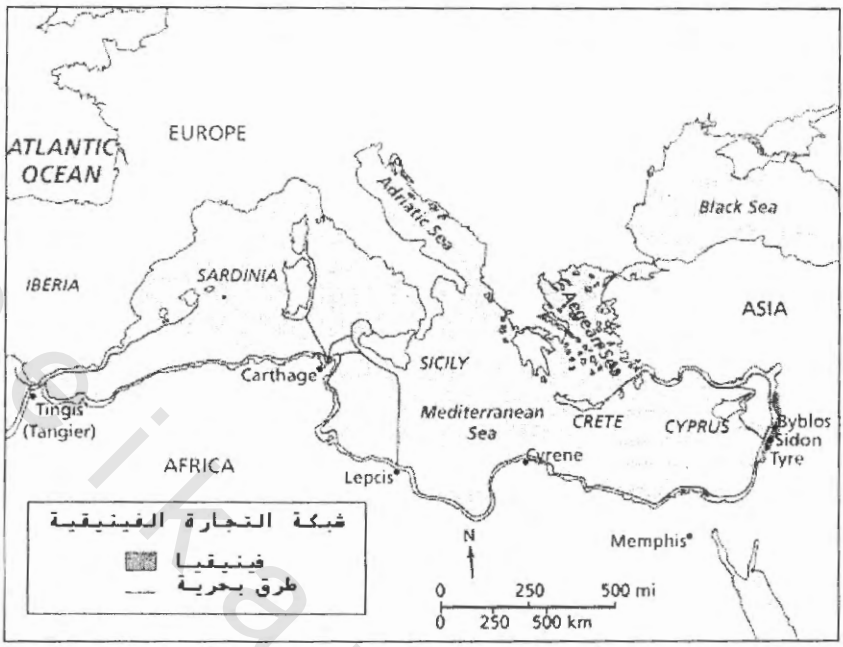

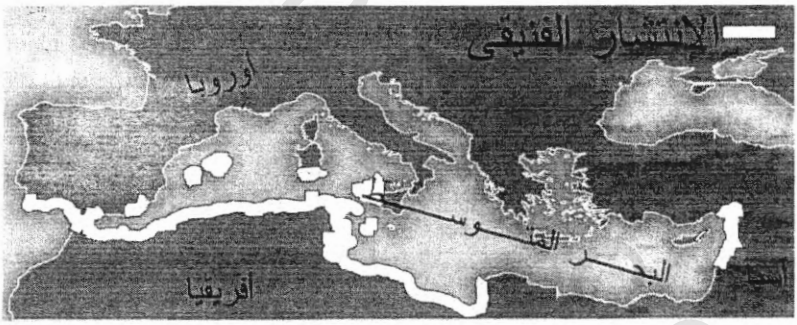

• السّلع التّجاريّة :

تستغرق رحلة التّجّار الفينيقيّين بضع سنواتٍ أحياناً. فهم متجوّلون، يعرضون على الشّعوب مصنوعاتهم ومصنوعات غيرهم. وبلادٌ كفينيقيا لا يمكنها أن تعطي الكثير، فيما عدا الأخشاب والزّيوت والخمور. لذلك اتّكلوا على إنتاج غيرهم يشترونه ثمّ يبيعونه. فاستوردوا الصّوف والجلود واللّحوم من سوريا، والعسل

والحبوب من فلسطين، والافاويه والتّوابل من الشّرق الأقصى، والنّحاس من قبرص واليونان والقفقاس (القوقاز)، والذّهب من إسبانيا، والحجارة الكريمة من مصر وسيناء، والعطور من بلاد الرّافدين، والأبنوس والعاج من السّودان، والكتّان والقطن من مصر، والخيول من أرمينيا.

ثم أصبحت فينيقيا أحد أغنى وأهم المقاطعات في الإمبراطورية الفارسية واستولى الاسكندر الأكبر على فينيقيا عام ٣٣٢ ق.م.

مثقال فينيقي لوزن البضائع

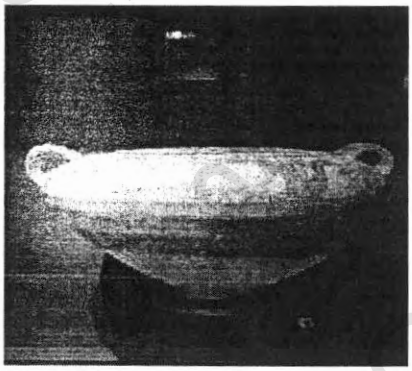

إناء مزين بأشكال بط فخار
خلده القرن التاسع – السابع ق. م.

تمثال لبعل الفنيقي وجد في إسبانيا

تمثال طفل مع كتابة فينيقية رخام معبد أشمون بستان الشيخ (قرب صيدا) القرن ٥ ق.م. "هذا التمثال نذره بعلشيليم ابن الملك بنعا، ملك الصيدونيين، ابن الملك بعلشيليم، ملك الصيدونيين إلى سيده أشمون ليباركه". عثر على هذا التمثال في معبد مكرس إلى إله الشفاء أشمون . كان الأهالي يقحمون هذه التماثيل للإله، عربون شكر لشفائه أطفالهم.

عشتروت ألهة الحب والجمال لدى الفنيقيين – رسم روزيتي

نماذج من النحت الفينيقي

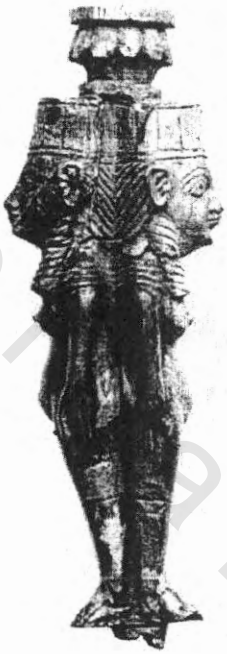

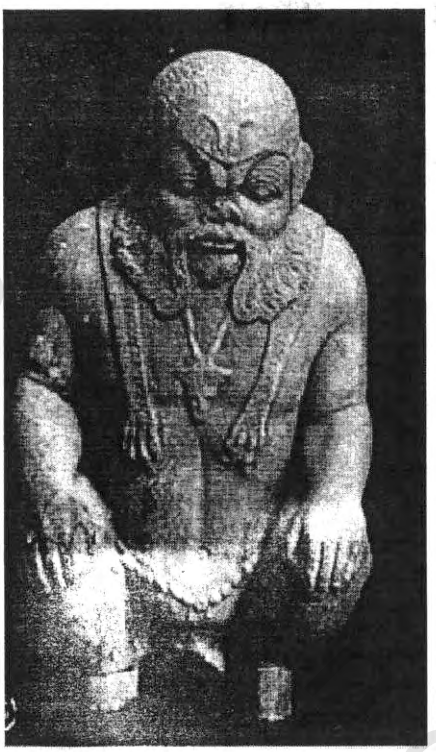

الكتابة الفينيقية

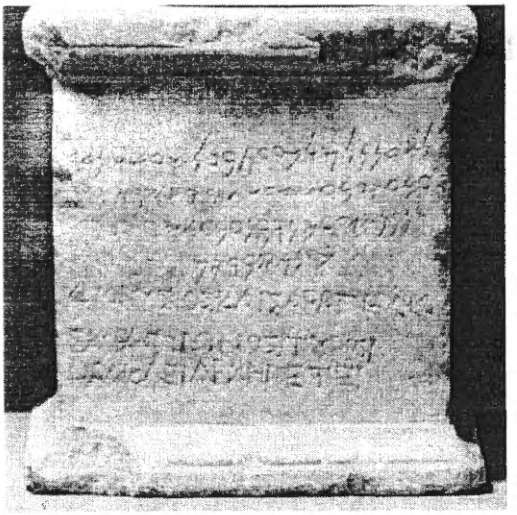

𐤀	𐤁	𐤂	𐤃	𐤄	𐤅	𐤆	𐤇
aleph	beth	gimel	daleth	he	waw	zayin	heth
A	B	C,G	D	E	F,U	Z	H
𐤈	𐤉	𐤊	𐤋	𐤌	𐤍	𐤎	
teth	yod	kaph	lamed	mem	nun	samekh	
T	I,J	K	L	M	N	S	
𐤏	𐤐	𐤑	𐤒	𐤓	𐤔	𐤕	
ayin	pe	sade	qoph	resh	shin	taw	
O	P	S	Q	R	S	T	

لسفن الفينيقية

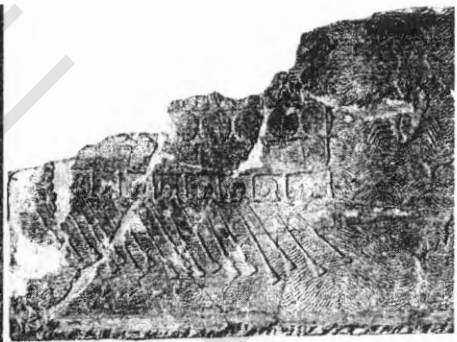

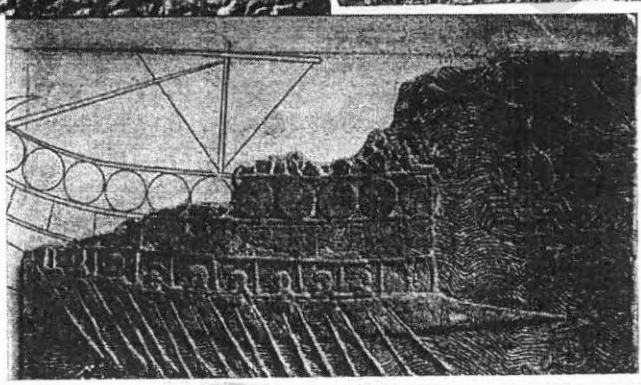

- نماذج من العمارة الفينيقية :

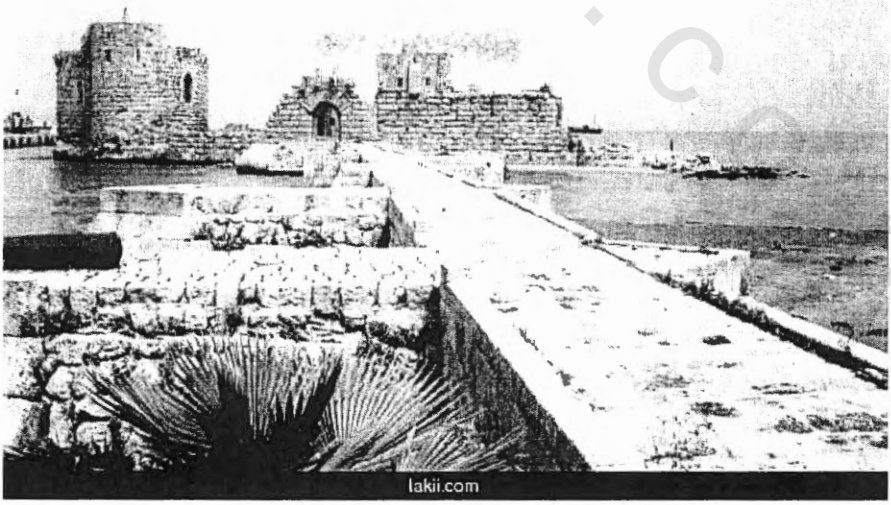

أثار لمنازل فينيقية في قرطاجة – تونس

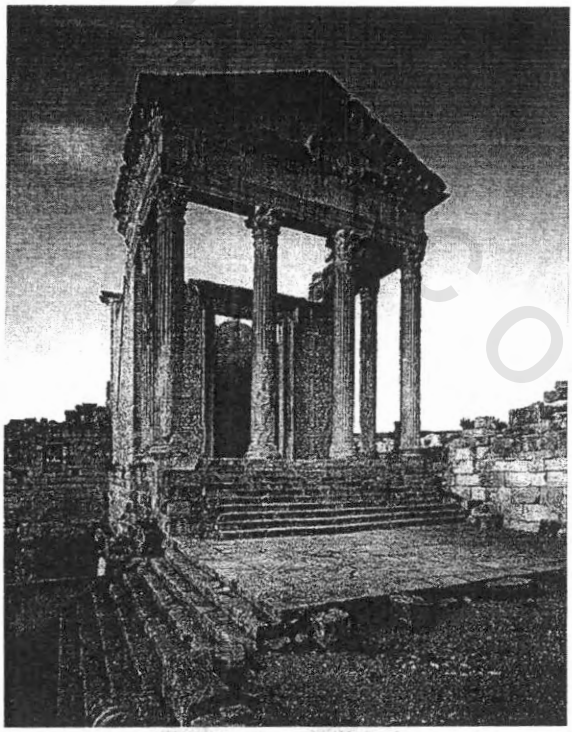

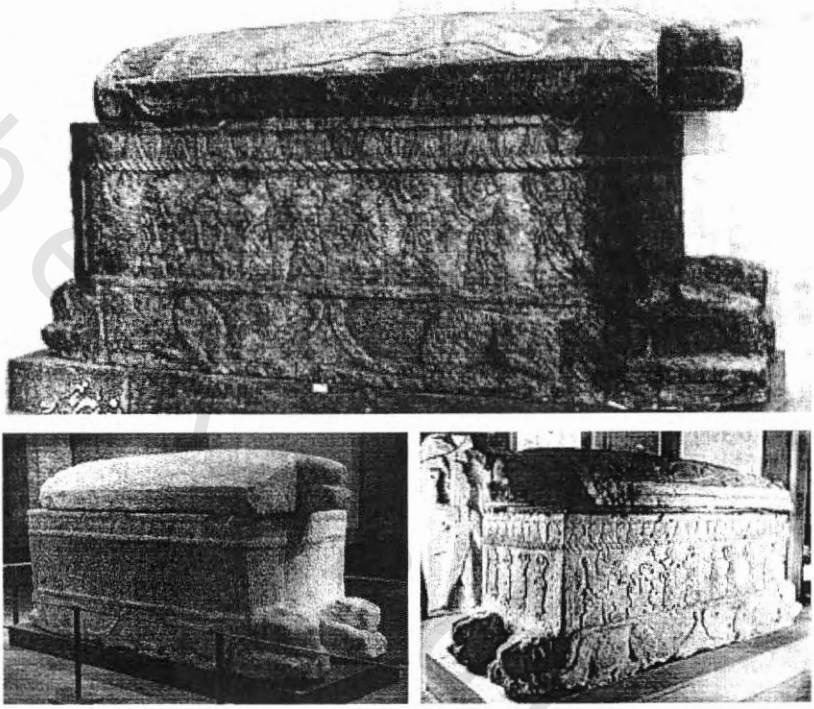

ناووس أحيرام، ملك جبيل مع كتابة فينيقية حجر كلسي – جبيل، المدافن الملكية القرن العاشر ق.م.يعتبر هذا الناووس من أهم القطع المعروضة في المتحف الوطني. يتميز بالنقوش والكتابة التي تغطي الجرن والغطاء مع بقايا دهان أحمر في بعض الأماكن. يظهر الملك جالساً على عرشه في عشاء مدفني، يتقبل القرابين من أشخاص أتوا إليه في زياح. كما نحتت النادبات إشارة إلى حالة حداد. تبدأ الكتابة على الجرن وتنتهي على الغطاء : "هذا هو التابوت الذي صنعه ايتوبعل، ابن أحيرام ملك جبيل ، لأبيه أحيرام عندما وضعه للأبدية. اما إذا قام ملك من بين الملوك، أو حاكم من بين الحكام، أو قائد جيش، بالهجوم على جبيل ويكشف غطاء هذا التابوت ، فليكسر صولجانه، وليقع عرش ملكه، وليهرب السلام من جبيل. وأما بالنسبة إليه، فلتمح كتاباته..." يعتبر هذا النص أقدم شاهد على الأبجدية الفينيقية التي قام بنشرها الفينيقيون في الألف الأول ق.م. في محيط البحر المتوسط بحيث درج القول لدى الإغريق بأن الفينيقيين اخترعوا الأبجدية.